منال عبدالحميد

المذكرات السوداء لـ فرانثيسكو ديل جويا

رواية

كما لم يولد مثله

قبر مفتوح على السماء

فريق متميزون
E-BOOK

المصري للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كما لم يولد مثله

(قبر مفتوح على السماء)

(رواية)

منال عبد الحميد

عن الرواية..

كما لم يولد مثله: قبر مفتوح على السماء

قد مات "نيكولاي جوجول" مجنونا، ومات "جي دي موباسان" مجنونا أيضا، أما "فرانثيسكو دي جويا" فقد عاش بجنونه، بسوداويته الغريبة، وهلوساته الفوق طبيعية، برؤاه الغامضة، وكوابيسه التي لاحقته بين جدران بيت مشئوم حبس نفسه فيه، بيت فقد فيه سمعه واضطرب عقله، وعاني ظهورات مرعبة لأشباح ووجوه شيطانية، وخيالات تركته محموما طريح الأرض، يهذي ويخرف. لكنه لم يمحُ كوابيسه بقوة فنه، بل استخدم تلك القوة نفسها ليخلد كل الجنون والرعب الذي عاشه سنوات قليلة من عمره. وشوم لا تنمحي طبعها على الجدران الصامتة، محولا كل المساحات الشاحبة إلى معرض مخيف لأحلام فنان. حقق كل الأمجاد بموهبته النادرة، ثم مات طريدا منفيا مفارقا لأرض وطنه، تاركا ذكرياته السوداء منقوشة على الجدران. فأي جحيم عاشه هذا الرجل؟! وأية قوى شيطانية انفردت به في منزل علته، لتتحطم أمامها قواه البشرية، وتتعاظم قواه كفنان خالد لا يجعلنا نفزع من كوابيسه ونوبات جنونه فحسب، بل نشاركه فيها أيضا بكل سرور نخب الجنون؟!

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

هذه سيرةُ حياةٍ لم تحدُث أبدًا، لرجلٍ ملأ الدنيا صخبًا ووجودًا، ليس للحياة حقيقةٌ إلا في سِيَر هؤلاء الذين تُعتبر حياتُهم سرًّا ولغزًا ومسيرةً مبهمةً، وحكايةً مشكوكًا فيها بشدة.. سوى ذلك ليس إلا بقاءً سخيفًا كالعدم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

«يَا سَيِّدُ، قَدْ أَنْتَنَ لأَنَّ لَهُ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ»

إنجيل يوحنا (39:11)

(0)

ظلٌّ هائلٌ يجثم على الأرض، احتجبت السماءُ وانشقَّ حجابُ هيكلِ كنيسة سان أنطونيو ديلا فلوريدا من منتصفه، لم تدُم الظلمةُ على الأرض أكثرَ من عشر دقائق، ريثما انتهوا من مواراته التراب حيث اختار أن يُدفن، ولكن ليس ثمَّة قدِّيسون ولا أنبياءُ مقبورون منذ القِدم قاموا من مراقدهم، أو جرؤ أحدٌ منهم على الدخول إلى المدينة المقدَّسةِ؛ وذلك لأنه لم تكن هناك مدينةٌ مقدسةٌ، بل مجرد خربةٍ مغرقةٍ في الخطيئة والدَّنس، سَدومُ عصريةٌ تُزيِّنها الراياتُ المخادعةُ والأعلامُ المضلِّلة، مدينةٌ حديثةٌ مُتنوِّرةٌ، قريةٌ قبيحةٌ تُفسح عضلاتِ صدرها، وتتثاءب خالعةً عباءةَ القرونِ القذرة المنصرمةِ، وردةٌ تتفتَّح ناشرةً بِتلَّاتِها في الهواء الطلق، وراميةً بذورَها في وجه الريح الغاضبةِ، التي تعصف تحت القببِ الهائلةِ؛ القببِ الصامتةِ الميتة، عشرُ دقائقَ هي كلُّ المدَّة التي احتاجوها ليدُسُّوه في اللحد وينصرفوا. تركوه خلفهم ورحلوا، غير أن شخصًا عاد خلسةً ليزيل الرُّكامَ، ويكشفَ طبقاتِ التراب عن الجسد الراقد بهدوء تحت الثرى.. الجسدِ الحيِّ الذي يتنفس!

لم يكن المدفون ميتًا بأي حالٍ من الأحوال، إنما هو حيٌّ وسيظل حيًّا. كَشَف غطاءَه وترَكه وشأنه. إنها نهايةُ قصته وبدايةُ قصة الآخر؛ الشابُّ المتحرِّر يبتعد مخلِّفًا الرجلَ المهدَّم يواجه الحياةَ بمفرده. لقد انتهى من مواجهة الموت، وعليه الآن أن يواجهَ خصمتَه العنيدةَ القويةَ، الحياةَ التي لا نهايةَ لها!

يتنفَّس حرًّا بينما الورودُ تتطاير متبخترةً متباهيةً بزهو ألوانها، ونزَقِ حبوب لقاحها حولَه، تنفَّس بعمقٍ وهدوء، مدَّ عينيه شاكرًا، لكن مُخلِّصَه كان قد رحل، تنفس حرًّا مرةً أخرى، وهذه المرة انبعثتْ من منخرَيْه سحاباتٌ من الألوان المتماوجة؛ ألوانٌ ترابية، وزخَّاتٌ صارخةٌ من النور الزاهي، بياضٌ شاهق، نصاعةٌ مؤذيةٌ للعينين، أين يجد المرء خطوطًا صمَّاء في الطبيعة؟!

في لا مكان، في لا مكانٍ يا جحوشَ الفرا!

تواتَر خروجُ السحابِ الملوَّن من صدره، سيدوم هذا إلى الأبد، حتى يدعو الربُّ الخلائقَ لشهود يومِ الدينونة. حسنًا.. ثمَّة مهلةٌ فسيحةٌ أمامه، إنني أسطِّرُ اسمَ جُويا في سجلِّ النسيان الأبدي، إنني ألعنه، وسوف يُمحى اسمُه إلى الأبد!

ومعَ ذلك فسوف يبقى اسمُه، يباركه الجميع، سيدوم ذكرُه مُجَلَّلًا بالفخار ومباركًا، يا سيدي هذا لا ينفع، لقد خرج «لعازر» من قبره حيًّا بعد أربعة أيام، فأيَّةُ قوةٍ قادرةٍ على سحْق اسم رجلٍ فنان؟!

امتلأ الفضاءُ بوابل الألوان، وتمايلت حول القبر المفتوح فراشاتٌ عرفتْ مصيرَها وأحكمَت قرارَها، فتركت النارَ لترقص حول النور.. النورِ الحقيقي الذي لا يحرق، إنَّ السماء نور والأرضَ نور، واللونَ نور، والحياةَ نور. والموتُ هو النور الأكبر، لن تسمع حفيفَ أجنحتها، ولا زقزقةَ العصافير من حولك، لكن بإمكانك بلا شكٍّ أن ترى بعينيك كلَّ هذا!

حيًّا وميتًا إلى الأبد، مُشرِعًا بصرَك نحو السماء، لن ترى فسادًا؛ فأنت قدُّوس، لن يلحقَك العفنُ ولا العطنُ، ولن يزحفَ فوقك الدودُ، وحدَها الفراشاتُ هي التي ستملأ قبرَك وتسكن فيه، في وسط أنفاسِك الخاملة، التي تدفع بنافوراتٍ متراقصةٍ من الألوان. الأبدُ يومٌ، والحياة يومٌ، ولقد أنهيتَ يومًا واحدًا، وبقي أمامك آخر بلا انقطاعٍ.. بدون نهايةٍ، وأنفاسُك تقذف النورَ الحبيسَ في صدرك، وتُحلِّل المَرْجَ الفسيح حولك بألوانك البرَّاقة، لقد مات الأسودُ بقتامته ساعةَ فكُّوا الأكفانَ عنك وحرَّروك، لن ترى تفسُّخًا ولا عطنًا. نم هادئًا، واحتفظْ ببسمتك، وراقِب العالمَ يتحوَّل إلى مساحةٍ موحَّدةٍ من الزخارف والفراشات وهي تطير خارجةً من عندك.. ثم تدور دورتَها اللانهائية عائدةً إليك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(1)

كعب كاتيا

متحسِّسًا الجدرانَ بيدين غليظتين مضى يشقُّ طريقَه المعتم، وسط غابةٍ من المتاهات المتشابكة، كانت الندوبُ تغطي هذه الأسوارَ من البشرة الحية، التي تتستَّر على عالَمٍ كاملٍ تحتها، عالمٍ من الأوردة والشرايين والشعيرات النوابض الصغيرة، كلُّها تدقُّ بحَمِيَّة، وتدفع الدمَ لزجًا وثقيلًا فيعود إليها مُصِرًّا، وقد تخفَّف من حمولته. رحلةٌ شاقةٌ مداها ألفُ سنة، ولا تتوقف أبدًا، هكذا تشيب البيوتُ كما يشيب البشر، خاصةً لو تُركوا وحدهم!

العزلةُ وحشٌ لطيفٌ مرعب، إنها تلتهمُك دون أن تنشِب فيك مخلبًا ولا نابًا، مثلما يفعل أسدٌ عجوزٌ مريض يُلقي إليه المحسنون بفتات لحمِهم المطهُوِّ على النار، إنها مذلَّةٌ عظيمة للسبع أن يأكل لحمًا نضج على صهدٍ بشريٍّ، نارٌ أوقدتها يدٌ تحمل خمسةَ أصابع، ومجردةٌ تمامًا من المخالب الحادَّة الفتَّاكة، ما عدا بعضَ الأيادي النادرة، التي لها مخالبُ مخفيَّة تحت اللحم االرقيق، أو التي تشرع في وجوه العالمين أسلحةً رقيقةً مطليَّةً، تبدو طريفةً ومغريةً بالتقبيل، كأظافر حسناءَ مفتونةٍ. كلُّهم يمارسون القتلَ سرًّا ليُشبعوا رغباتِهم، والرسم نوعٌ شديد الوحشيَّة من سفك الدماء، إنه تجريدٌ للجسوم من أرواحها، ونقلُها صلبةً ميتةً جامدةً كسولةً، على طرف واحدٍ من الحقيقة، إلى الأبد، وحملُها مجمَّدةً إلى الورق، نوعٌ قاسٍ من الخلود الملعون، إلا إن كانت يدُ الناقل شديدةَ الرأفة، وواعيةً لما تُقدِم عليه؛ يدٌ بيضاءُ رقيقةٌ وناعمة، كيَدِك في الأيام االخالية، قبل أن تُغريَك حمَّي اللهاثِ خلف تخليد الآخرين بيديك أنت، بيديك أنت حبسْتَ ملوكًا بين أربعة صفوفٍ من الألوان، ومناظرَ ميتةٍ في غرفة عرشٍ لا يدخلُها رجلٌ صادق أو يحترم نفسه أبدًا، وفي الركن ألقيتَ بتلك الملكةِ الفاسقة اللعوب، والأولادُ ورثةُ العرش الملعون يقفون متخشِّبين، كجثثٍ حيَّة في مواضعَ اُختيرت لهم بعناية، هؤلاء الذي يقصفون الرقابَ دون ندم، وقفوا محنيِّي الأعناق ينفِّذون أوامرك؛ لكي تمنحهم خلودًا لا يشرِّفك، ولا يشرِّفهم. إنهم مفتونون بالبقاء حتى بعد الموت، حتى قبل الموت، ولكنَّ الموتَ لا يسمح لأحدٍ بأن يخدعه، إنه يخدع الجميع، ويسرق الجميع، ويسخرُ من الجميع، كلصٍّ ظريفٍ في روايةٍ مسلِّية، لكنَّ اللصَّ يترك بطاقته خلفه ويفرُّ، أمَّا الموت فلا يهرب أبدًا، إننا نحن مَن نهرب منه!

كانت مخالبه قد تقصَّفت الآن، واللحمُ الطريُّ على يديه صار جامدًا كالمعدن القاسي، وعلاه سوادٌ، وتضمَّخ بسلسلةٍ من لطخات الألوان وظلالها؛ أحمر، أبيض، أخضر، أسود، لكن الأخضر كان الأكثرَ ظهورًا، إنه لم يُتيَّم بالأخضر كثيرًا، إنه لونٌ قاسٍ جدًّا ومسيطرٌ، فالطبيعةُ خضراءُ وقاسية، والنباتُ

المتسلق أخضر ويخنقَ كلّ شيءٍ في طريقه، والثغرُ الذي مِلّتَ عليه متوسِّلًا قبلةً حارة، قبل أربعين عامًا، بدا لك أخضرَ حينها، برغم أنه مطليٌّ بشذوذٍ بلون أحمرَ مخيف لأعينٍ أدمنَت التفرقةَ بين درجات الألوان، إنك لم تفهم سرَّ هذا اللغز حينها، كيف يبدو الثغرُ الأحمر أخضر، وكيف تراجعْتَ مذعورًا حينما بدا لك أنك ستقبِّل شفتيْ جثةٍ قد راحت تتحلَّل، الأخضر مخيفٌ وقاسٍ وصريحٌ وباتر، ولا يفضِّل كثيرًا التنازلَ عن منازعاته حينما يختلط بغيره، يمتزج بتعالٍ ولا يتلاشى أبدًا، ويكفيه أنه لون الموت، فحتى العفنُ والتحلُّل لونهما أخضر!

كانت الجدرانُ هادئةً مستكينةً وطيِّعةً. يلهث المرءُ فور خروجه من رحم أمِّه جريًا وراء شيءٍ ما، يجري ويجري حتى يبلغَ السعادة الحقيقية، ليست مالًا لا ينفد ولا سلطانًا، ولا أسرةً عظيمةَ السلالة ممتدةَ النسب، بل إن السعادةَ تُدرَك فقط حينما يفهم الإنسان متأخرًا جدًّا أنه ما من شيء يستحق كلَّ الركض والتسابقِ والحسرةِ والسقوطِ ميتًا في مضمارٍ لا يُهرع فيه ولا يسابقه أحدٌ سواه، وعندما نعرف أننا كلَّما سابقْنا أنفسَنا تجاه مخرجٍ من ورطة ما، وجدنا أنفسَنا إزاء ورطةٍ أكبر، حتى يدركنا الموتُ في النهاية ساخرًا منَّا ومن مُجوننا، كان الموت يوثِّق حياةَ هذه الجدران، لحمٌ مغضَّن متراخٍ، كقطعة قماشٍ ممزقةٍ في أكثرَ من موضع، ما إن تجذبها بقوة أو تضع أصابعك مفرِّقًا بين شقوقها حتى تتمزَّق كلِّيةً في يدك، لذا كان عليه أن يكون هيِّنًا ليِّنًا، ترى لماذا طلب من صاحبة الجدران أن تسمح له بتحسُّس بيتها المتداعي المثير للحزن؟ هذا لغزٌ في حدِّ ذاته، لغز شائقٌ، مثل كل هذه الألغازِ العويصةِ، التي عكف أحقابًا على حلِّها، يا له من أحمق، إنه لم يحلَّ لغزًا واحدًا في النهاية، بمقدار ما صرف من عمره وصحَّته وفرصه المهدورةِ في السعادة، بل زاد الأمور تعقيدًا!

معتمدًا على يديه، راح يجوس بين الديار، كشعراء العرب الذين يقفون مطالعين آثارَ معشوقاتهم الراحلات، كمَواجد الأغاني الأندلسيةِ المُغرِقةِ في الحزن والحنين، كذلك ترحل الحياةُ عنَّا، وتترك أجسادنا بيوتًا هرمةً لا مظهرَ واحدًا من القوة أو المحبة فيها، لقد أيقن دائمًا أن الطبيعة لا تحبُّ الإنسان تحديدًا، بل تبغضه؛ لذلك يكون الإنسان أشدَّ الكائنات بؤسًا في كِبَره، إنه أكثرُ مخلوقٍ تظهر عليه علاماتُ الزمان القاسية، إنه انتقامٌ رائعٌ ومثاليٌّ وكاملٌ، ما أروعه من انتقامٍ يا ربي!

لا بدَّ أن بان الماجن الخليع يقف ضاربًا نايَه المجدود في بقعة ما من الأدغال الكثيفة، الأدغال المجهولة التي لم يجرؤ أحدٌ على استكشافها بعد، داعيًا إيَّانا للِّحاق به.. للرقص.. للبهجة.. للخمر المراق في حِداد ديونيسوس المبتهج.. للخديعة المُحكَمة، لكننا لا نحتاج إلى دعوة، بحق العذراء، سيدة القلب

اللطيفة، نحن نُهرع خلف الموتِ دون أن ننتظرَ دعوةً أو نتوقّعها، يا لها من حقيقةٍ سارَّة وآسرة!

- « إنك تتداعين يا كاتيا، تموتين عمَّا قريب، حدودُ وعظام وجهك البارزة تقول هذا!»

قال وهو يسحب يديه، دون أن يتحرك منحاشا، بعيدًا عن وجه المرأة المتهالكة التي تجلس قُبالته مباشرةً، تاركةً له مساحةَ وجهها الخاصة يعيث فيها فسادًا، ويتحقق بيديه الماهرتين، وعيناه مزمومتان بإصرار، من الخراب الذي لحِق بوجهٍ كان يُسكِر بلحظه وجماله سادةَ مدريد، وآلهةَ بلاطها، والسعداءَ ممَّن يهلُّون زائرين وضيوفًا على سانليكار دي باراميدا. منذ سنواتٍ لا تزيد عن الثلاثين سنة. كانت «كاتيا» تتقبَّل هذه الحقيقة بينها وبين نفسها دون أن تعترف بها، وإن كانت تكره جدًّا أن يذكِّرها أحدٌ بها، لكن «فرانثيسكو الصغير» كان شيئًا آخر، مهما بلغ من المرء اعتدادُه بنفسه، ورفضُه لأن يسمع صوت الحق، فإنه يحب أن يكون بجواره شخصٌ ما يصارحه من حينٍ لآخر بالحقيقة التي يخفيها، وينكرها حتى عن نفسه، حتى الملوك يتخذون عشيقاتٍ سرِّياتٍ، يبصُقْن عليهم ويضربْنهم خلسةً، ويتسلَّطْن عليهم في لحظات الشَّبَق القاسي، حتى الملوك والآلهة لهم نقاطُ ضعفهم ومباذلُهم هم الآخرون!

انسحبتْ هي لتوفِّر عليه مؤنةَ التراجع خطواتٍ معدودة، قد تكلِّفه الارتطامَ بأحد الجدران الملطَّخة بصباغٍ طريٍّ لم يجفَّ بعدُ خلفه، كان قد سوَّد الجدران كلَّها ولطَّخها بألوان جنونه، وكانت ترتعب كلما تطلَّعت إلى ما نثرته يداه من أزماتٍ طاحنة تعصف به، كان ذلك يُشعِرها بالذعر. من المرعب أن ترى الإنسانَ من داخله. الثوب الفاخر الرقيق حينما تقلِبُه، دائمًا ما تكون البطانةُ أقلَّ جمالًا وأكثر إفصاحًا عن جودة الصنعة الحقيقية، ينثرون اللآلئَ على الوجه ويتركون الحشوةَ جرداءَ فقيرة، وهكذا الإنسان يتوهَّج من الخارج، بينما داخلُه عظامٌ نخرةٌ وكلُّ نجاسة، لكن هذا الرجل لم يكن نجسًا أبدًا، إنه استثناءٌ من كل القواعد، أما هي فكانت تبيانًا للقاعدة بقسوةٍ وصراحة، وهي لا تخجل من فسقها، بل تُباهي به. العفو يا «كاتيا»، إنك تُجبرين الأخلاقَ نفسها على الانحناء، لمن علَّمتْ فيلسوفًا كيف يجد لذَّته في الاستلقاء تحت قدمي امرأةٍ تصفعه وتبصق عليه!

لعلَّنا كلَّنا مرضى نتداوى بسرقة التِّرياق من بعضنا، أو باستعمال كلٍّ منَّا للآخر كمِبضَعٍ يحُزُّ به نفسه، ويفتح أحشاء الآخرين، أبعدته محترزةً أن تبدو متلهفةً للتحرر منه، كانت تراعي شعوره دائمًا، برغم أنه لم يمسسها قط، لم تسمح له بذلك، لكنها ما أحبَّت رجلًا غيره أبدًا!

تنفَّست مُتعنِّتةً إزاء الطبيعة التي تعمل عملَها القذر في جسدها، وتُضَيِّق سعةَ صدرها، مثلما تحفر قبورًا عميقةً في وجهها الفتَّان، التقطت نفسًا آخر، ثم هتفت ساخرةً دون شعرة إذلالٍ له أو استهانةٍ به:

- «إنك لم تفقد البصر يا «فرانثيسكو»، لستَ أعمى، بل أنت أصمٌّ فقط!»

كانت تعبِّر عن دهشتها إزاء إلحاحِه على معاينة وجهها بيديه، وعيناه مغلقتان بإصرار، بينما هو لا يعاني عمًى أبدًا، لماذا يستخدم يديه حيث كانت عيناه تسعفانه وتكفيان؟ لم تسمع جوابًا قط، بل سمعت شهقةً متألمةً، افتُتِن «فرانثيسكو» بملاحظاته الدقيقة، وعزَم على أن يحصلَ على فوائد دراسته الصغيرة كاملةً، مدَّ يديه أمامه، وتصفَّح وجهها ثانيةً بسرعةٍ فائقة، ثم هتف متوسِّلًا الفهمَ والتقديرَ من شريكته في المحنة والموتِ البطيء الصعب:

- «لقد اهترأتْ عيناي يا «كاتيا»، الفنان يستعمل عينيه حتى تفسَدا وتُصبحا عمياوتين، حتى وإن أبصرتا قُبلةً تتبادلها الكواكب الخفيَّة سرًّا، حينذاك يأتي دور اليدين؛ فهما العينان الحقيقيتان، وآخرُ ما يموت من الإنسان يا كاتيا يا كاتيا!»

يردِّد اسمها أكثر من مرةٍ في سطرٍ واحد، إنها الحياةُ الوحيدة التي تبقَّت لاسم «كاتيا»، كان ذِكرُها يرنُّ رنينًا في بلاط مدريد، وشوارع الأندلس المعبَّقةِ بالندى ذات يوم، أمَّا الآن فلم يتبقَّ لها سوى يا كاتيا يا كاتيا، مجرَّدًا من كل فخرٍ وتحقير!

قالت وهي تعيد تثبيتَ العقدِ الثمين الذي نزعتْه من حول رقبتها المغضَّنة، كما أمرها «فرانثيسكو» قُبيل البدء، ليتحسَّس عنقها بكل حرية:

- «الكواكب لا تتبادل القُبلاتِ يا جويا!». قالت مستهزئةً بخياله الجامح.

فأجاب مُصرًّا وهو يسمع كلَّ كلمة جيدًا، برغم أنه أصمٌّ تمامًا، مثلما أعلن كافةُ أطبَّاء الدنيا الثقات:

- «بل تفعلان يا كاتيا، لكنك لا تسمعين صوت شبَقها لأن أذنيك صمَّاوتان!»

ضحكتْ مستبشرةً بمزاجه الحادِّ الطارئ، لقد بدأ ينفعل ويغضب، وهذا ما أرادته طويلًا، لقد نجحتْ في خطَّتها أخيرًا، ولذلك- وكمكافأةٍ له- انحنتْ نحوه ومنحته قبلةً سريعةً على شفتيه الجامدتين؛ قبلةٌ تلهَّف على مثلها قرابةَ نصف قرن، لكنه لم ينلْها أبدًا إلا الآن!

لكنه لم يرتوِ، لم يكن هذا يكفيه، بل ركع متناولًا قدمَها المحبَّبة، قدمَها الدقيقة، التي طالما أدارت رؤوسَ القوم برشاقة دورانها، وخصوصيَّة حركتها اللَّولبيَّة كفراشةٍ لا تكفُّ أبدًا عن الدوران حول النار الموقدة، وطبع قبلةً

متقنةً وعميقةً على كعبها الناصع، الشيء الوحيد الذي بقي صلبًا ومتماسكًا وناعمًا فيها، دون اهتراءٍ أو صَغَارٍ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)
زحل يقضم عَقِبه نيِّئًا!

«كرونوس، كرونوس!»

عِمْ مساءً يا آخرَ السلالة الساقطة، يا عدوَّ أبيه وخائنَ الماء الذي منه نبتت بذرتُه، عملاقٌ جبار لكن برأس قطٍّ أزعر، كرونوس.. كرونوس، ها هي توقظك من نومك الوشيك، تُقلق محاولتَك اليائسةَ لاستجداء الراحة، في سماءٍ واسعة لا تجد فيها ملجأً لك، جسيمٌ لكنك أقلُّ ضراوةً من هرٍّ يبلغ قياسُ أنيابه أصغرَ من ذرةٍ هائمة في الفضاء الخالي، الخالي من كل شيء عدا الشقاءِ وأوهام الخيانة. والخيانةُ تدور كما العَجلة ويأتي ظاهرُها إلى باطنها، متخالفَيْن يتبادلان قلبَك الهلوعَ اللجج. «جايا» هو اسمُها وهي أمُّك وأمُّهم، كلُّكم لنفسٍ واحدةٍ أبناءُ الأرض الصلبة، التي تلد من الماء أرواحًا وملائكةً وشياطين، وعمالقةً مثلك ومثلهم، والأبُ كان ماءً مهينًا يُخصِّب ولا يملك من أمره شيئًا، كالقطرات المهدَرة فوق رمالٍ لا حياةَ فيها، لا يُعطي الميتُ حياةً، لكن الحيَّ يستطيع أن يستخرج الموت من باطنه المضطَّرم، وقد كان أورانوس حيًّا، والموت يرفرف فوقه كطائرٍ أسودَ مهيضِ الجناح، يهدِّد الكونَ بصيحاته المرعبة، والأمُّ تتآمر عليه طَرُوبة مستندةً إلى نسلها الممتدِّ، وصار الأب مخصيًّا بلا روحٍ، رغم أنه يمتلئ حياةً، حياة كالموت بلا جدوى، قليل النفع كما الآخرين أيضًا، وهكذا صعدت عرشَ الكون، غير أن الخيانةَ لها ألفُ وجهٍ يا زحلُ سيئ الطالع كما أن لها ألفَ ظهر، إنها تدور بلا توقف، ولا ينتهي أوانها أبدًا، الخائن يُخان، وتدور العجلةُ لتسحق رقبته. إنها حقيقةٌ رائعة، حقيقة مرعبة، وكاكتمالٍ لهوى الهلاك تقع في غرام أختك الشقيقة «ريا» الحسناء، التي تعرف كيف تسوقك أمامها، تدَّخر لك مجدًا ونسلًا ممتدًّا، ومؤامرةً صغيرة، تخرج ملوَّثةً بالأوضار من رحمها المعطاء، كلُّهم أولادك، لكنهم خطرٌ عليك؛ ليكونوا كلُّهم أعداءً لك، يطمعون في مجدك، يرمون بأعينهم إلى عرشك المكرَّس لخيالاتٍ لم تتحقق أبدًا، لا يمكن تأمينُ عرشٍ أُخِذ أصلًا بتحطيم أمانٍ شاغله الأول، لا ينتقل الميراثُ طاهرًا أبدًا، إنه يتنجَّس بكلِّ الخطايا، وكلِّ الحرمات التي انتُهكت من أجل الوصول إليه، موتٌ أول يتلوه قلقٌ يجعل البقاءَ شقاءً لا يُحتمل، ها هي تهمس في أذنك، مثلما همست أمُّك في زمانٍ قديم، قديمٍ وموحشٍ ومظلم ومنسيٍّ بيأس وشبق، إنها تنسِل لك أولادًا، كلُّهم مثلك، وكلُّهم يناصبونك العداء، بمجرد مولدهم يرمقونك بعيون حادة، لا غشاوةَ ميلادٍ فوقها، يقولون لك بألسنةٍ لم تتعلَّم أن تنطق بعد: متى يحين موعدك أيها العملاقُ الفخور؟!

متي يفتك أحدُنا بك مثلما فتكْتَ بأبيك حينما كان الزمان زمانك؟ الزمان يتبدَّل يا حاكمَ الكون، والحظُّ يتقلَّب من يد إلى يد. «ريا» يا بنت «جايا»، أيُّ لعنةٍ تحملينها في أحشائك؟ أيُّ لعنةٍ جئتِني بها؟ من السهل أن تحزقي دافعةً عرقًا حيًّا من جوفك، لكن الأسهل أن أمضغ أنا بأنيابي القوية معيدًا إياهم إلى الأحشاء الرطبة المظلمة، ظلام في ظلام، وأولادُك ليس مقدَّرًا عليهم أن يمرُّوا بالنور أبدًا، من عتمة رحِمِك إلى حلكة أمعائي، غدائي سمينٌ يا أختي المحرمة، وعشائي لحمُ ضأنٍ صغير مشتهًى، كشفَتَيْن لم ألثمهما أبدًا، فقد تعلَّمت أن أنهي حاجتي واقفًا دون أن أسمح للونٍ من العاطفة أن تلطِّخ ثوبَ قسوتي وفظاظتي. بعد الميلاد ترقد «ريا» متلفِّعةً بمرضها، بوهنها وتعبها، حتى الآلهة تتألم في المولد، ليست آلهتنا أربابَ فردوسٍ لا يعرفون الألم، إنهم أنجاسٌ مناكيدُ يتلذَّذون بتعذيب مخلوقاتهم، وكنوعٍ فجٍّ من العدل يعانون مثلما يعاني مَن كتبوا عليهم هم بأنفسهم المعاناة. رقادٌ طيبٌ قصيرٌ أيتها الأم الغافلة، لكن وليدك يصلُح كوجبةٍ طيبة لشرٍّ يترصَّد به، لشرٍّ قد جاء به، لشرٍّ يخاف الشرَّ الذي أخرجه نطفةً من أحشائه؛ ليتداوى الشرُّ بالشر، والموتُ بالموت، وليكن الأولادُ طعامًا لأبيهم الظامئ الساغب اللاغب!

تناول زحلُ طفلَه المكتنز، لن يتفقَّد فرطه، ربًّا كان أم ربَّة، الكل يغرقون في رحمِ ظلمة أحشائه، طعامًا لأبيهم، كالقطة تزدردُ صغيراتِها الميتة التي تزحم العش، كذا يزحم الوالدُ بطنه بلحم أولاده، يعرف البشرُ الأغبياءُ بعضَ القواعد، ليسوا دائمًا أغبياء كما ينبغي، فقد أفلت «بروميثيوس» النورُ إليهم، أعطاهم القبس، كل هذا سيكون في المستقبل، حتى البشرُ أنفسهم لم يوجدوا بعد، لحسن الحظ أنك إلهٌ وتعرف ما سيكون، ولمزيدٍ من حسن الحظ فإن بعضَ لمحات المستقبل تبقى خافيةً عليك، هذا عيبُ الآلهة عندما تتنازع الصولجانَ وتتضارب سلطاتُهم، إنها أنثى إذًا، آلهةٌ كما كان يجب أن تكون، كل شيء بكلمةٍ يكون، وبكلمةٍ أيضًا يُمحى. لحسن الحظ يكون البعض سيئَ الحظ، ويكون البعض الآخر عميانًا، رغم أنهم يبصرون بثلاث أو أربع أو خمس أو ألف عين!

يلتهم الآلهةَ التي خرجت من رحم أخته المحرَّمة، فاكهتُه غير الشهية التي اختارها لنفسه، أم هي التي فعلت، لا تفكروا كثيرًا وأنتم تلتهمون الطعام، إنها لذيذة للأكل!

لحمٌ شهيٌّ بلا ملحٍ ولا حسكٍ ولا عروق ولا دهون زائدة، وجبةٌ مضبوطة كالجحيم، وكالماضي الذي من المحال محْوُه، ومَن يروم أن يزيل ذكرى كان فيها سيدًا مطلَقًا، بلا معارضين أو متجرِّئين على اتهام حِكمته؟ تزحف الوليدة منزلقةً إلى داخل جوف أبيها، لقد تلذَّذ بالتهامها، شعورٌ رائع أن تأكل مما أنتجتَ بحبَّات عرقك ومائك المراق في غير شهوة، التعب يُصلِح كلَّ الأعراض

الموجعة، إنها سنَّةٌ عليك أن ترعاها. يا زحل احمِلْ اسمًا، اتخِذْ لك عنوانًا ثابتًا في السماء، وللعروق الصفراء العفيَّة كن ربًّا ومنهاجًا، كرونوس آكلُ الأولاد، العملاقُ الذي فعل في أبيه، ثم خاف المغبَّة من يد مواليده، لا يعرف كلَّ المستقبل، لكن ما يعرفه يكفيه، يكفيه جدًّا، حتى حينٍ يا فتى!

أمسِكْ به يا صبيَّ المذبح المارق، أيها الكافرُ حبيسَ حاسَّتك المتلاشية، كيف يمكن أن نحتمل سخفَ هذا الوجود دون أن نكون سخفاءَ بدورنا؟ نحن المغفرة يا أربابَ أيجه ولستم أنتم. أمسِكْ به في لوحة يا «فرانثيسكو» الأصم، ألصِقْ ظهره إلى جدار، وخلِّدْ قصته المخزية. «كرونوس».. لقد أكل جدَّاي تفاحةً من شجرة الخير والشر، وبجسدي المتهالك لا زلتُ أدفع ثمن نزواتهما وطيشهما، بينما أنت خطيئةٌ رائعة، خطيئةٌ مكتملة، فلقد طعمتَ أولادك، وطبختَ لحمهم بلا نار ولا حرٍّ، أكلتَهم نيِّئين محترزًا من عاقبةٍ تحلُّ بك، مخاوفُك لا أساسَ لها يا جِرمًا ضخمًا بلا عقل، فلا يوجد سوءٌ يمكن إيقافُه، الشر أقوى من الخوف.. من الحذر.. من الأبواب المغلقة بوجهه.. أقوى حتى من حكمة الآلهة القديمة، وإلا فلمَ تسلَّل الشرُّ إلى في وكري المنعزل؟ لقد أغلقتُ أبوابي ونوافذي في وجهه، فتسلل إلى من من ثغراتٍ في روحي، أستطيع سدَّ فرجات الجدران بالجصِّ، وطلاءَها وإخفاءَ العيوب، لكن كيف السبيل إلى جصٍّ يسدُّ منافذ الروح المهترئة؟!

الرجل الميت هو الرجل الصالح، والرجل الأصمُّ هو رجلٌ ميت، إننا نُتبنَّى من أسماعنا، يشدُّنا العالم من آذاننا منذ لحظة الميلاد، بيْدَ أننا وعندما نغدو بلا آذان نصبح لقطاء، لقطاءَ وأحرارًا، بلا انتماءٍ ولا حبلٍ يجذبنا إلى حيث يجب أن تعود أصولنا، يا كرونوس.. ألستَ شبحًا هائمًا يُقلق نعاس روحي، ويجعل نومي بائسًا؟!

بدِّد مخاوفَك بالإمساك بها من ذيلها، شد القطَّ النافر من عَقِبه، واكشف أنيابَك في وجهه، الفأرُ العجوز يستطيع أن يخيف قطًّا غرًّا قليل الخبرة، كذا يخيف الإنسانُ إلهه عندما يستحوذ على المعرفة، على النور، على الكمال غير الممكن، المطلقُ يهدد المطلق فيسرق عرشَه، والآلهة تتبادل السلبَ في رأس المجرَّة، كاللصوص في الحارات الضيقة، والشوارع المسدودة بحائط، وماذا بعد التراجع طويلًا إلى الخلف؟ إما أن تصطدمَ مؤخرتك بجدارٍ مسدود فتهلك، أو تجدَ منفذًا للهروب فتحيا من جديد!

فلتختبرْ حياتَك من جديد، ولْتُمسكْ بمخاوفك من أعقابها، لا تُلقِ بها بعيدًا، بل تفحَّصْها بنهَم، تذوَّقْها بلسانك، حلو أو بارد أو مملَّح أو حارق، أفاوية آسيوية تعطيك المذاق، وتخفي عنك الحقيقة، ماذا يخيفك في أحمقَ أكل أولادَه؟!

الآن فقط يعرف أنه ما من شيءٍ يخيف مَن لا يخافون، تفحَّص جدرانَه المصمتة، لا منفذَ لنورٍ أو شمس أو ظلٍّ غير مطلوب، المساحاتُ معتمةٌ بالكامل، والفرارُ لأسْراك الموهومين سيكون مستحيلًا تمامًا، حتى إذا متَّ أنت فلن يحررهم أحد، إنها فتنةُ الفن وخلودُه وقسوتُه، فظاظةٌ لا نهاية لها أن تخلق شيئًا من عدم، ثم تتحكَّم في مصيره بيد واحدة، اختارت ألوانًا قاتمة، ألوانًا من تراب، والدمُ لا يجرؤ أحدٌ على أن يُعِيره لونًا سوى حقيقته المرعبة، يجب أن يكون الشرُّ ملوَّنًا وإلا لما أصبح شرًّا، الخير يمكن التعبير عنه بلونٍ واحد ومنظرٍ لا يتبدل، لكن للشر ألفُ لونٍ، وعنده ألفُ وجه، هذه خطورة الشر وتلك فتنتُه، عينان كبيرتان تحدِّقان في هلع، لا لذةَ في تناول لحمٍ تخافه، يمكنك أن تطهوَ حمَلًا، أو تشويَ خنزيرًا، لكن أكْلُ رجلٍ هو شيءٌ متوحش، وتناوُلُ لحمِ إلهٍ هو أسطورةٌ تستحقُّ التسجيل، لك لا للآخرين، خلودك لك وحدك، وحدودك تقيِّدك أنت ولا أحد غيرك، وللناس حقائقُ تافهة يتشدَّقون بها؛ ليُمكِنهم أن يتحملوا حياتهم ويعيشوها. سيقولون: وُلد «فرانثيسكو» عام كذا، مات «فرانثيسكو» يوم كذا، وترك «فرانثيسكو» كذا، لكن اللعنة عليهم، ماذا يعرفون هم عن «فرانثيسكو» ليلوكوا حياته في سطرين؟ ليجعلوا من بؤسه زينةً فاخرةً تزدهي بها حجراتُ نومهم، وغرفُ طعامهم وصالوناتهم الفخمة الميتة؟!

هنا يجتمعون ليتحدثوا عنك، لكنك تهزأ بهم جميعًا، وتعرفهم بخشونةٍ أن الفنان لا يبيع نفسه أبدًا، ولا يكشف كلَّ سرٍّ اؤتُمن عليه للناس، فقط ما سمحتْ له به آلهةُ الفنون المحتجبة الرقيقة القاسية، التي لا تسفر عن وجهها أبدًا، مساحةٌ كاملة أعددتها للرسم.. للخلود.. للتسجيل الذي لا يمكنهم أن يسرقوه منك، كيف بالله يستطيعون أن يحملوا جدران بيتك ويضعوها في جيوبهم؟!

سحقًا للبلاط، فها هنا يوجد بلاطٌ حقيقي، حيث لا سبيلَ لملِكٍ ولا حاجبٍ ولا أمين سرٍّ أن يتسلَّل بوجهه الكريه. عنفوانُ الغضب لصمت الكون من حوله جعل فرشاتَه تصرخ بديلًا عنه، إنه يرى بيديه، ويعيش بيديه، ويخلق بيديه، ويخلِّد أشخاصًا ويحكم على آخرين بالفناء المطلق بيديه، أفلا يمكنه أن يسمع بهما أيضًا؟!

ما أهونَ ذلك عليك وعليهما! «كرونوس» ينطلق منتعشًا من اللوحة، من المساحة المعتمة المضفَّرة بالشرِّ اللامع، يلتهم لحمًا حيًّا لينقذ رقبته من الطوق، وبرغم كل محاولاتك تسلَّلتْ مخاوفه إليك، ثم ارتدَّت عائدةً، مجسَّمةً مضاعفةً وفظيعةً نحو صدره العاري، يأكل بلا لذةٍ ولا أمل، يمزق لحمَ وليده ويبتلعه من الصدر، وجبةٌ لا شهوة فيها، لا ملح ولا زبد فوق خبزك النتن، لحمٌ صرفٌ غليظ، حريٌّ به أن يُتْخِمه ويفتل معدته، حتى إذا هضم لحمَ ولده راح

دمه يتبيغ، وينفجر حرًّا من منافذ جسمه كلها، مصيرٌ بائس يا زحلُ المنحوس، لكن هذه هي المنفعةُ الوحيدة من كونك إلهًا!

إنك تنجو من المصير البائس الذي تكتبه على خَلقك، وتشفقُ على نفسك مما تحكُم به ضدهم، ليس للآلهة أمعاءٌ ولا دماءٌ ولا شرايين ولا قلوب، ولا للرحمة مكانٌ تستقر به في أجسامهم الغليظة العفية، كان للفنان آلهةٌ رحيمة في عصرٍ قديم، آلهةٌ لها أجنحةٌ وأوجُهُ إناثٍ رقيقة وطباعُهن الشفوقة، لكنها تنازلت عن عرشها لربٍّ ذكَرٍ يزدري الفنَّ وأهله، ويعذبهم عذابًا شديدًا بالرؤى والأحلام والخواطر المهتاجة، باختلاط العقل وتلاشي الحواس، والرغبة التي لا تُدرَك أبدًا، ولا تشبع أبدًا، كما لم يشبع «كرونوس» الجبار من لحم أولاده، لم يفتح قارورةَ نبيذ، ولم يخبز أرغفةً مجمرة، بل واصل التهامَ ذرَّيته حتى أُلقم في النهاية حجرًا!

حجرًا أكل، وحجرًا أقرَّ في معدته، وحجرًا لفظ مرغمًا، حينما تبدل الزمان، وناءت الأقدار بحمولتها عليه، كان هذا حينما جاءت «ريا» المسافحةُ بأصغر بيضاتها، حين أخرجتْ إلهًا لعوبًا، سلفًا للبشر، متقلبًا وماجنًا مثلهم، ومتآمرًا ومخادعًا، وله أمٌّ مثلهم، يجوز للرب أبٌ واحدٌ، لكنه عندنا يحوز أبوين، ينصرم رهانُ هيبته، ويتحول إلى إنسانٍ تخشاه الآلهة ولا يخشاهم!

حين فرغ من الرسم والتصوير أحسَّ راحة الموت، التي طالما انتظرها، والتي راوغته حتى أدمتْ فؤاده، ها هو زحل المسمَّى «كرونوس» مجسَّدًا في حبسة جدار، في قعر منزلٍ مقفل، يلتهم أولاده ولا يحسُّ بلذة ما، ينضمُّ إلى قافلة من الموتى والمحزونين والعفاريت والشياطين، والأبطال والغرقى والمسبيَّات والعشيقات، سيبقون كلُّهم طويلًا رهائنَ بيتٍ لا يشرف عليه سوى رجلٍ واحدٍ، رجل فقدَ حواسَّه واحتفظ- مفاخرًا بذلك أيضًا- بيديْن تريان نيابةً عن عينيه، وتسمعان أصواتَ صراخ الكون التي جاءت حتى من قبل مجيء الزمان وانبلاج النور، بديلًا عن أذنيه المتبطّلتَين إلى الأبد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(3)

يدُ الله ليست على المطرودين!

- «مرحبًا أيها الخليع!»

درجت العربةُ المحملةُ بالأغراض التافهة، فوق طريقها الترابي الوعر غير الممهَّد، لقد اختار طريقًا موحلًا ومقفرًا، مستذكرًا الشيءَ بالشيء وحشة البشرية حينما كانت تسير فوق الأرض الوعرة، وتتشقَّق أقدامُ البشر، عندما كانت الأرض بكرًا لم تخربها يدُ إنسان، بغلفتها كأبناء الربِّ في الفردوس، قبل أن يسقط «آدم» كانت الغلفةُ كمًّا مهمَلًا، لكن بعد السقوط أصبحت عارًا، السقوط يصِمُ كلَّ شيء بالدنس والدونية، حتى ولو كان طاهرًا نقيًّا في ذاته. لماذا اشترط «يعقوبُ» على «حمور» وأهله من شكيم أن يختتنوا؟!

ليصيروا طاهرين للصهر والنسب، أم ليسهل بترُهم، ويصبحوا طعمةً سهلةً لسيوف ولديه؟!

الأب المكلوم في زمنه، إنه يشعر بورطته الآن، ورطة «يعقوب» إذ يصعد سلمًا إلى الرب ويعود خاويَ الوفاض، أو يصارع مَن صنعَه ويطرحه في الخلاء، كلاهما خيارٌ مرٌّ لرجلٍ جاء وأخذ زمانه ورحل، لكن زمانك يا «فرانثيسكو» مازال باقيًا!

العاصمة المضيئة أُطفئت أنوارها وأُسدلت الستائر، يموت الإنسان في كل مرة يتضعضع فيها عضوٌ منه، لا مرةً واحدة بل ألفَ ألفِ مرة، إننا ندرك الكون بحواسِّنا، نراه ونلمسه ونشمُّ رائحته، ونتذوَّق مرارته، ونلعنه بألسننا الناطقة، لكن علينا أن نسمع دعواه قبل كل شيء، يسيطر السمعُ على الحواس كالشيخ الصحراوي الخبير على قبيلته النافرة، المُحبِّةِ للغزو والقتال والضرب والفرار. من المستحيل أن تدرك قضيةَ شاهدِك عادلةً كاملةً ما لم تسمع مبرراته، وتفحص حُججَه أولًا، وكيف تدرك حاجة الوجود وتفنِّد أعذاره، وأنت ببساطة عاجزٌ عن أن تسمعه وتنصت إلى خطبه البليغة؟!

للفنان يدٌ وله عينان، لكن عليه أن يسمع كلَّ شيء أيضًا، اللون كالصوت له خصوصيته، ولم يُخلق كلٌّ كاملًا مكمَّلًا دون صوت أبدًا.

نحو البوابة التي لا وجود لها، سمع صوتًا يحيِّيه بازدراء قائلًا:

- «وداعًا أيها الخليع.. سُحقًا لك يا ملعون!»

سمع شتيمته بنفسه، برغم أنه لا يستطيع أن يسمع مطلقًا كما يقولون!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجرٌ رماديٌّ عابس، كآبةٌ فوق كآبةٍ، ووهنٌ على وهن، وحيدًا في حجرته الباذخة، بلا مرافق، رغم أنَّ بهو المنزل لم يفرغ من الزوَّار والمراجعين، وحيدًا في عزلته، اختار الحزن فاختاره، رحل أطباؤه تاركين له الخبرَ غيرَ السارِّ، لم يقم المسيحُ من الموت في هذا البيت المهموم، بل نهض سيدُ المنزل ليجد نفسه يحدِّق في ظلمةٍ شاحبة راسخة، سكونٌ مطبق وكأن الكون قد أسدل ستائره وخلَد إلى نوم طويل. بتُؤَدةٍ.. غادر مرقدَه، بصعوبة دون المشقة، كان جسده مخدَّرًا بالأجزية الباهظة التي سقوه إياها، دواءً خلف دواءٍ من التركيبات شديدة المرارة، كلما كان المرض مريرًا كان ترياقُه أشدَّ مرارةً وإلهابًا للأعصاب المضطرمة، لم تُجْدِه أدويتُهم نفعًا، بل الحق إنها حوَّلت حُمَّاه القوية إلى نوعٍ من الهذيان والاحتراق الداخلي، الذي لا ينتهي، لكنهم فعلوا كل ما في وسعهم، هذا قدْرُ ما في يدهم!

ليسوا سحرةً؛ فقد مضى زمن السحر، وانتهى زمنُ الضجيج أيضًا، لم يسمع صوتًا لقدميه المتردِّدتين فوق أحجار غرفته العارية، لقد طلب منهم نزْعَ الأبسطة الغالية، بينما هو يتراوح بين الإفاقة الكاملةِ والغفلةِ التامة، قُبيل أن يسقط صريعَ فورةِ المرض الأولى. ما الذي حدا به إلى هذا المطلب الغريب؟!

إنه لن يعرف ذلك أبدًا، لكن العدوى سرَت منه إلى الأحجار فيما يبدو، وكما كبَتْ صرخاتُ تألُّمه، تكتَّمت الأحجارُ على وقع خطواته فلم يعُدْ وجودها يبين، إنه نوع وحشيٌّ من إنكار الوجود. نهض وهو لا يكاد يقوى على رفع جسده، ومشى وئيدًا وهو لا يقدر على فرد صُلبه وهو يمرُّ عبر مسافةٍ قصيرةٍ عارية، وبلا حواجزَ خطرة، نحو نافذته المسدَلةِ ستائرُها منذ أكثرَ من أسبوع. لقد أغلقوا عليه منافذ الهواء خشية الحمَّى والبرد، وحالوا بينه وبين الاتصال بالشمس والهواء وصخبِ الحياة، التي لم تكُفّ لحظةً واحدة بالخارج. الموتُ خير مُؤدِّبٍ للإنسان، لكن يبدو أن «فرانتيسكو» الطيب لم يفعل سوءًا، ولم يقترف مظلمةً تجعله جديرًا بالموت في تلك المرحلة، ربما العكس، فكثيرًا ما يُعاقَب أعتى المجرمين بالحياة لا بالموت، حياةً كاملةً مُقيدةً وراء الجدران. إن أيَّةَ ميتةٍ ليهونُ شأنها أمام ذلك الموت المتكرر الذي تُعاد كافةُ تفاصيله كل يوم!

لكن الموت فيما يبدو بعيدٌ جدًّا، مازال خفيًّا يتسلل كحيَّة قديمة مفعَمٍ جوفُها بالسم. خطرٌ داهم يقع خلف الأفق، كشيطان يهوي- بعد أن نال نصيبه من اللعنة- من السماء نحو قريةٍ هادئة، لا يستشعر سكانها السذَّجُ أيَّ خطر، لكن النتيجة واحدة ومؤكدة: إنه أفلت من قبضة الموت هذه المرة، وربما لمراتٍ كثيرة قادمة، وربما لآخر مهلةٍ ممنوحة له، لكنه مُطالَبٌ بأن يكتشف الحكمة خلف اختياره المحكَم هذا اليوم الجديد!

مشى ببطء حيث توقّع أن تدبَّ قدماه الثقيلتان، اللتان جعلهما المرض تزنان أطنانًا من السوء، فوق الأرضية محدِثتَين رنينًا متقطعًا؛ رنينًا غير منتظم، لكن له أشدُّ النغمات انتظامًا وبهجةً في هذا الكون، فرحةٌ أن تدوس بقدمين على وجه الأرض فتسمع أنينها صخبًا، ولومها انزعاجًا مؤلمًا، ثم تؤوب بعدها كحبيبةٍ عصيَّةٍ متمردة، إلى الخضوع والطاعة، وتبتلعُ أثر الإهانة خفيفًا، لتكتمه داخلها، وتبتسم وكأن شيئًا لم يحدث، وبالفعل فلم يحدث أيُّ شيء، فلا هو سمع صوتَ الأرض تتمخَّض تحت خطواته، ولا الحبيبةُ المتمردة عرفتْ مقامَها وركنتْ إلى المهادنة أخيرًا، وهنا على وهن.. قطَع طريقُه القصيرُ- وصولًا إلى النافذة- أملَه الأخير في الاتصال بالعالم، يمكن للإنسان العادي أن يتحمل السجن قرنًا أو قرنين، أما الفنان فإنه يولد بسجنٍ كبير في داخله؛ لذلك فإن أيَّ محاولةٍ جديدة لتقييد حريته من الخارج تُفضي به إلى الجنون، أو الموت، أو تمني أيِّهما بصدرٍ مفتوح في كل لحظة مائةً مرةٍ. هربت منه آمالُه الصغيرة مع انزياح الستارِ الكثيف وتباعد شقَّيْه؛ ليسمحا للضوء بأن ينفذ إلى الغرفة الرمادية. فجرُه شاحبٌ لكن الشمسَ كانت هناك، في قُبُل السماء، كوردةٍ مورقةٍ تمنح خدَّها مزهرًا نضرًا لكل مَن يشتهي التقبيل. قبَّلت الشمسُ جبين العالم، وتلقَّت تحيةً مستحقَّةً من الأزهار، والبشر والدوابِّ وأحجار الشوارع، والبناتِ الصغيراتِ بوجنتاتهنَّ المتوردة الناضرة. تشرق الشمس دائمًا في وجوه الأطفال، وتغرب فوق أسوار المدن وتجاعيد العجائز الهرمين، لا حقَّ للموتى في إلقاء التحية على الشمس؛ لذلك- وبرغم إشراقها الكامل الصريح- بدت الشمسُ للسيد «فرانشيسكو» بعيدةً جدًّا، متنائيةً ومتعاليةً جدًّا، وغيرَ راغبةٍ مطلقًا في إقامة أي تواصلٍ معه، لم تنتظر تحيته ولم تُهدِه بأجملَ منها، بل تركته واقفًا هناك يتلصَّص على الوجود الصاخب، الذي لا يفصله عنه إلا ستارٌ رقيقٌ من خطواتٍ يسهل قطعها نزولًا، أو مضيًّا في خطٍّ مستقيم، إن هو امتلك الجرأةَ الكافية ليغادر المنزل من بابه الأمامي، أمام أعين كل هؤلاء الرعاةِ الأجلاف، الذين سحبوا منه- بحُكم المرض والضعف- حقَّه الطبيعي في الوصاية الكاملة على قراراته، وحياته، وحتى موته. كانت خطواتٍ صغيرةً لتصله بكل ذلك، لكنه تُرك وحيدًا، كمجذومٍ منبوذ، يتطلع حذرًا أن يُظهر وجهه السقيم في النافذة متسائلًا في دهشة: لماذا كفَّ كل شيء عن أن يكون له صوت؟!

ما سرُّ هذا الصمت المطبق؟! ومضى كل شيء في طريقه في سكون، حتى عربة القشِّ الثقيلة تمرُّ على بُعد خطواتٍ منه، وفوقها الغلامُ الصاخب، الذي فقد ثنيَّتَيْه منذ سنوات عديدة، ولا يبدو أنه سيستعيدهما أبدًا، وهو يصدح بأناشيد الرعاة المحبَّبة، التي يحفظ منها كمًّا يثير الدهشة، دون أن يبزغ من بين شفتيه اللتين تتحركان في نشاط لا يكلُّ أيُّ صوت يمكن سماعه!

لم تكن المسافةُ الفاصلةُ لتبرِّر له هذا اللغز، فليس من المنطقي أن يمضي الكون في هدوء فجأةً، وهو الذي صدَّع رؤوس الأحياء بجنونه وصخبه، منذ لحظة السقوط العظيمة، حتى الملائكة لا تطيق الصمتَ المطبق، فتعكُف طيلة الأزمانِ الطويلة، الملقاة على عواتقها، في تلقين التسبيحِ وإنشاد مدائح الربِّ.. لكن هل الربُّ يسمعها حقًّا؟!

هذا لغزٌ آخر، هل كل هذا مجرد عازفٍ أعمى مسكين، يُؤتَى به لينوح بأرغنه في حفلٍ أرستقراطي فخم، ويمضي منشدًا أنينه وشكواه الفنية دون أن يسمعه أحد، أو يأبَه به أحدٌ في الواقع؟ هل نحن هذا العازفُ الضرير، ونظل نمارس حياتنا المقفرة دون أن نرى في الواقع حقيقةَ ما نقوم به حتى نموت؟ ربما الموتُ وحده يهبُنا البصرَ والبصيرة، لكن الحياة ليست بتلك القسوة بحيث تسلب منَّا لا البصر وحده بل السمع أيضًا!

استمر يحدِّق هائمًا، والتساؤل ينمو بداخله كوحشٍ مخيف، رجلٌ مسكين ابتلع بيضةً حية وفقسَت بداخله، ما تراها فاعلةً به حين تطرح ثمرتَها المُرَّة الخبيثة؟!

ستأكله، حتمًا ستأكله، أو تؤكَل هي، وفي تلك اللحظة كانت الحيةُ الدخيلة تنمو بداخله، ضخمةً مرعدةً مهددةً بكل سوءٍ وكل مصيرٍ مظلم.. لماذا لا يسمع للحياة صوتًا من حوله؟!

إن الفنَّ لغزٌ لكنه لا يقدِّم حلًّا للألغاز الأخرى، هل فهمْت؟ لا يمكنك بالاستعانة بفنِّك أن تكتشف أسرار الكون، بل يمكنك أن تَعرِضها وتفضحها فقط، وفنُّك لا يسعفك في تلك الساعة ليخبرك بما حجبَه الآخرون عنك، هو لا يعرف تداعياتِ مرضه ولا أعراضَ أدويته الكثيرة الجانبية، فقط منَّوه بالشفاء ووعدوه بصحةٍ طارئة، بعد مرضٍ طويلٍ إن خضَع لطرُقهم وابتلع- سمًّا زعافًا- كلَّ ما يعطونه إياه. وقد فعل، حتى الزرنيخ لو أعطَوه له في الحساء، وقالوا إن فيه شفاءً له، لجرَعه دون تردد، غير أنه يبدو أنَّ خططهم كلَّها باءت بالفشل، فهو لم يشعر أبدًا بأنه مريض أكثر مما هو عليه الآن، برغم أنه استردَّ قدرته على المشي، ومواجهة مصيره واقفًا على قدميه، وليس ملقًى في فراشه يتفصَّد عرقًا، ويستقبل المرارة معبأةً في قنانٍ صغيرة، يثير مظهرُها الرعب والفزع، ويُنضَح المرةَ بعد المرة بالماء، يتقاطر من خِرقٍ مبلَّلة، لا تفتُر أن تُلقى على جبينه الملتهب، لكن هل نفعه كل هذا؟!

لا يبدو ذلك للأسف!

وفي حمأة تطلُّعه فُتح بابٌ من خلفه، وتسلَّلت ربَّة البيت، لا صاحبتُه، تنظر حالَ مريضها. دائمًا ما يحمل الخدمُ همَّ مرضِ أسيادهم أكثر من الجميع، فالزوج والزوجة يمكن استبدالهما، والأبُ والأمُّ يفارقان الفكر ما إن يكبُر

الولد، ويحوز بيتًا وزوجةً خاصَّيْن به، والأولادُ يمكن أن يولَد غيرُهم، لكن السيد الطيب إن ذهب فلا يمكن تعويضُه، فما أندر السادةَ الطيبين في هذا العالم!

جاءت «مانويلا» لتنظر سيدها، فألْفَته واقفًا بقرب النافذة يطالع مصيره النهائي، الذي يجهل كلَّ شيء عن حقيقته المريرة حتى هذه الساعة، اقتربت منه حثيثًا، ولما تأكدت أنه لا يسمعها، وكانت قد نهتْ نفسها عن أن تناديه بخضوع، خشيةَ أن تبكِّر على نفسها كثيرًا بالتأكُّد من الحقيقة المريرة التي قيلت لها، وبوجهٍ يبدو أشدَّ نحولًا ومرضًا من وجه سيدها الطيب، لامست كتفه من الخلف، تجرَّأت على وضع يديها عليه، ولم تكن تلك أول مرة؛ لقد جيء بها إلى هذا البيت بثوب المزرعة القذر، وهي لا تزال تدمج عظامَها الصغيرة لتصنع مرتكزًا قويًّا تدرج عليه ما تبقَّى من حياتها الموهوبة، وظلَّت في مهنة البيت أولًا، وأصحابه ثانيًا، حتى بالغت عظامُها في تآلفها الحميم تاركةً لها جنفًا لم يُشِن خدمتها أبدًا، بل أعطاها رهبةً وتفرُّدًا كمتنبِّئةٍ عمياءَ، أو قدِّيسةٍ مصابة بالبهاق، جاءت إليه لتطمئن إلى كذب التشخيص وتهافُت آراء الأطباء، لكنَّ أملَها خاب بقسوة، لقد تضرَّعت راكعةً من أجله طوال ستة أيام، تلك التي استغرقها عنفوانُ علَّته، التي كادت تقضي عليه، من أجل الشفاء والسلامة والخروج بلا خسائرَ من محنته، لكن دعاءها لم يُجَب، يا إلهي لمَ لا تجيب دعائي، برغم أني لا أقرَبُ مالَ النذور المسروق، ولم أعرف رجلًا أبدًا؟!

تلك خطايا الفقراء في مجتمعها، أما الأغنياءُ فيشترون بمالهم الكثير صكوكًا تغفِر لهم ما تقدَّم من ذنبهم وما تأخر، فإذا كنتَ فقيرًا ولا تملك مالًا لتدفع؛ فعليك أن تكون طيبًا مستقيمًا بكل بساطة. جاءته محملةً بالأمل، وحين وجدت خيبتها ماثلةً أمامها، وعرفت أنه حقًّا لا يسمعها، ولا يسمع شيئًا مما يدور حوله؛ ساورها الشكُّ في قوة إيمانها، ومتانة يقينها بفاعلية الصلاة، هل كان عليها أن تركع يومًا سابعًا ليُجاب دعاؤُها، وتكسرَ النحس القائم حول الستة أيام التي استغرقها الربُّ ليخلق كل هذا العالم؟ لم يتبارك الكون إلا في اليوم السابع، وليتَ سيدَها بقي راقدًا لنهاية أسبوعه، إذ ربما نهض في اليوم السابع مرتاحًا مشمولًا بالصحة والعافية، دون أدران الوعكة، مثلما استراح الربُّ في اليوم السابع وأعطى البركة لكل شيء!

- «فليباركك الرب يا سيدي!»

كساحرةٍ ترمي تعوذيتَها الأخيرة، في حضْرة سحرة فرعونَ الأفذاذ، هتفت متوسلةً إلى الرب أن يفتح أذنيه، ويدَعه يسمع خادمته المخلصة، وهي ترمي بالبركة عليه، لكنه لم يفعل!

فلا الربُّ سمح، ولا «فرانثيسكو» سمع. لعنةٌ كاملة والشك بدأ يتسرب إلى قلبها، نوازعُ مبهمةٌ تعذبها للحظة، هل أدار الربُّ وجهه بعيدًا عنها، ولم يشأ أن

يسمع توسُّلاتها؟! أم أن الربَّ ليس هناك أبدًا، ولا أحد في السماء من فوق، أو في الأرض من تحت، ليسمع توسُّلات من يحتاجون إلى مَن ينصت إلى رجاءاتهم؟!

نفضتْ رأسها بقوةٍ مؤمنةً تقيَّة، ولن تدع الشيطان يتسرب إليها مرتديًا جلد حمَلٍ صغير، لا الرب هو الحمل، وهو راعي الحملان، ومحنةُ سيدها لا بدَّ أنها تكمن وراءها حكمةٌ عظمى، لا يدركها- الآن على الأقل- أحد!

توارتْ خلف كتفه للحظة، مكفكفةً دمعةً وحيدةً أحرقت جفن عينها اليمني، ومستجمعةً شجاعتها، لتهزَّ كتفه من أجل أن يشعرَ بوجودها. استدار هلعًا وقد قتم لونُ وجهه، حتى حاكى مصباحًا قديمًا لم ينظفه من السُّخام وبقايا الحريق أحدٌ أبدًا، وكان هو الآخر قد بدأ يدرك تفاصيلَ محنته دون تزويقٍ أو رجاءٍ فظٍّ في وقتٍ تعوَّد فيه أن تخيب كلُّ الرجاءات، وتُردَّ كل التوسلات بقسوة، وتُغلقَ أبوابُ السماء مغضبةً في وجه الصالحين والطالحين على السواء، وحين رأى رفيقة منزله المخلصة، وتأكَّد من أنها لم تكن لتدخل وتلتصق به عن قرب، دون أن تُحدِث خطواتها صوتًا، أو ترفع حسَّها بطلب الإذن ممتثلةً؛ أدرك أيَّ قسوة انتهت بها فورةُ مرضه الغامضة. ودون أن يبدأ نوبةً من الهياج والعصاب اعتراضًا على قدَره غير المبرَّر، وغير المفهوم وغير العادل، مال ملقيًا برأسه نحو كتفها، فرفعت هي عاتقها ليكون عائقًا يلقي بأثقاله عليه، ويحول بينه وبين الانطراح أرضًا، والتمرُّغ في حمَّى الحزن غير المجدي على ما أصابه. تقاربا فوجد المسكينُ شبكة أمانٍ تقيه شرَّ السقوط المدوِّي. على الأقل لديه شيءٌ باقٍ، وعلى الأقل لديه شخصٌ واحد ليقول له دون خجلٍ من شماتة، أو شفقة تؤذيه أكثر مما تنفعه:

- «لقد أصبحتُ عاجزًا أصمَّ يا «مانويلا» الطيبة!»

وبوجهٍ شاحب متصلِّب الملامح تلقَّت المرأة التي طالما عرَكت الحياةَ وراوغت الموت الخبرَ، وأجابت مُردفةً ضامَّةً حزنَه الرصين إلى جزَعها، الذي تخفيه عنوةً:

- «أجل يا سيدي!»

تأوَّه «فرانثيسكو» حزينًا، لكنْ شاعرًا بالتعزية في نفس الوقت، حتى وإن كان لم يسمع جواب خادمته، ولن يسمعه أو يسمعها أبدًا بعد ذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(4)

منزل البشارة المرعبة!

دفع الباب ودخل ملقيًا بثقله إلى الأمام، كجنديٍّ مدرَّع يقتحم حصنًا منيعًا عنيدًا، أو كرجلٍ شقَّ عليه الأمر، يرمي بنفسه أخيرًا بين ذراعي غانية، طالما تمنَّعت عليه وتدلَّلت، قامعةً رغبتَه في سعادة لحظيَّة يستحيل أن تُسفر عن أي شيء ذي بال، غير أن حصنه الصغير لم يكن مؤمَّنًا بأي حال من الأحوال، ولم يُبدِ مطلقًا أي نوع من التمنُّع أو الدفع القسريِّ إلى الوراء، وليس له من صفات الغواني غيرُ خلَّةِ الاستجداء والإلحاح في العرض، التي تلجأ إليها النسوةُ اللائي ذبل جمالُهن، ولم يعد الرجال يجدون فيهن مطمعًا لهم. كان هذا البيت سيئَ السمعة، شريرَ السَّمت، نحس الأعتاب. نبوءةٌ غامضة، كوسواسٍ قهري من شيطان لا تراه ولا يمكن أن تمسك به. تشبَّثْ بقدَرك والجأ إلى معتزلٍ يكفيك شرَّ الناس، ويكفيهم شرَّك!

إنه لم يعد يتحمَّل صحبة البشر، حتى من تلاميذه الأشدِّ إخلاصًا ووفاءً، دجَّالون مخرِّفون متملِّقون، وطبقةٌ نبيلة غائصة في القذارة والدنس، ليس هو قديسًا من بينهم، لكنَّ هول خطاياهم يجعل أوصاله ترتعد، وخطاياه التافهة تتضاءل حتى تكاد تنمحي أمام جسامة جُرمهم وفداحة آثامهم، لكَم عايش أقدارًا لا يمكنه تحمُّلها في المدينة الكبيرة المولَعة بالتبرُّج والزينة. الآن آن أوانُ الاعتزال والابتعاد؛ رحمةً بنفسه، وكبتًا لخواطره الساخرة الشريرة، التي تهاجمه ليلًا ونهارًا، وتطلُّ من عينيه صريحةً ساخرةً مستفزةً، بينما هو يستند مرتاحًا إلى مقعده، والنبلاءُ يقفون أمامه وقفة انتباهٍ ورضوخ، منتظرين أن يصورهم في أجمل المناظر، أجملها وليس أصدقها، فلا مكانَ للصدق والإخلاص حينما تدسُّ أنفك بين طبقات النبلاء، والحكام وقدِّيسي ديوان التفتيش!

هناك دومًا حجرُ عثرةٍ في الطريق، ولا بدَّ لقدم شخصٍ ما أن تصطدم به، هذا الحجر الذي أعثرك كان يمكنك أن تحوِّله إلى بقعةٍ قاتمةٍ في لوحة تخلِّد ذكراك بجوار الأخريات، لكنك اخترتَ الارتطام به بسرعة قاتلة، مزَّق أعقاب قدميك، ثم نفذ إلى دمائك، ناشرًا الغبارَ والرماد والأتربة في روحك المهترئة. استعدادٌ فطريٌّ للتأزُّم والسقوط، كملاكٍ مغرور بلا خطيئة. لم يسقط سيد الظلام ويهْوِ في العتمة إلا لأنه حسِب نفسه بلا خطيئة، ويستحيل أن يتردىَّ في العتمة، لكن هكذا كان، وهكذا جيء بك، بواسطة قوة لا اسم لها، من أرضك البعيدة المحصَّنة، لتسكن ضيعةً مخرَّبةً، ومنزلًا مغمورًا باليأس والحاجة إلى التفهُّم، الإلحاح على أن تكون مفهومًا وبلا ألغاز، وواضحًا كرابعة النهار لشخصٍ ما، يكفي جدًّا أن يكون لديك شخصٌ واحدٌ يفهمك دون أن

تنطق بكلمة، َغير أن حتى تلك الحاجة الملحَّة الطبيعية فارقَتْك، اللعنة عليهم كلهم، فليستغلِقْ عليهم فهمُك، ولْيَرموك بالجنون والهرطقة، وليقولوا فيك ما يقولون، وهل يظنُّون أنك عدتَ تبالي بهم؟!

لذلك تبحث عن عزلة صادقة، تُغنيك عن صحبةٍ ضاجَّةٍ وصاخبةٍ، مملوءة خبثًا وشرًّا، وأنفاسُ الحسد الحارَّة تفوح من تحت ثيابهم المغسولة المطرَّزة. عندك خادمةٌ مخلصة، امرأة أميَّةٌ لا تعرف عن الفنون شيئًا، الرسم بالنسبة لها ليس إلا وسيلةً لكسب العيش، تمامًا مثل تحميل العربات بالقش، أو بيع البيض الطازج في سوق سانتياجو دي كومبوستيلا، حيث وُلدتْ ونشأتْ زمنًا طويلًا من عمرها. إنها فكرة ساذجة، تثير سخريةَ النبلاءِ والمتعلمين وفتيان الجامعة المتحذلقين، المحمَّلين بكل ضغينةٍ نحو البسطاء والأمِّيين، وعامةِ الشعب البائسة، الأغيار الذين يحسبونهم بلا نفع، وهم من يجودون عليهم بكل ما يلزم لحياتهم الفارغةِ البطالة، لكنه يجدها- بعد فحصٍ منصفٍ عادل- لم تجانب الصوابَ ولو قليلًا. صحيح أليس هدفُه النهائي من كل تاريخه المحمَّل بجبل من اللوحات والرسوم والبورتريهات، ينوء به ظهرُه وتهوي كتفاه تحت ثقله الآن، هو الحصولُ على المال وتحقيق الشهرة؟ وأليس هذا هو نفسه هدف المرأةِ القروية، التي تبيع البيضَ الطازج في سانتياجو دي كومبوستيلا صباحَ يوم السوق؟!

ثم تذهب لتطرح كرونين كبَركةٍ في ضريح «يعقوب بن زبدي»، الرجل الذي سار جنبًا إلى جنب مع الرب!

نفس الهدف يتحقق بطرقٍ متنوعة، وللخلود فإن لهم طُرقًا مختلفة، لكنها تتَّفق مع أسلوبه في غايته النهائية، فيدفع البسطاءُ بأولادٍ كثيرين إلى سطح الأرض المعذَّبة ليخلِّدوا ذكراهم، ويتركوا أثرًا من لحمهم ودمائهم، أثرًا يعيش ويتحرك ويتنفس ويخلِّف بدوره المزيدَ من التفريعات والبراعم الصغيرة، وهو نفس ما يفعله وهو يتمخَّض، أمام كل جدارٍ أبيض قبيح، وإزاء كل لوحةٍ قماشية، وقطعة صلدةٍ بليدة من النحاس، محوِّلًا هذه المشغولات القبيحة الخالية من كل معني أو فائدة، إلى لوحةٍ تنبض بالحياة، بالفن، بالحقيقة المزيفة، وبالصوت المريع، الذي يصرخ بشبَق وعنف:

- «إنني أريد الخلود. أريد أن أبقى حيًّا حتى بعد موتي!»

حسنًا.. لقد وجد القديسون طرُقَهم الخاصة، وعثروا على حيلةٍ سهلة وبسيطة للخلود، أما هو «فرانثيسكو جويا»، المولود لكلٍّ من خوسيه وجراسيا، الأبوين النقيضين، اللذين أتى كلٌّ منهما من طبقة مختلفة، فليس أمامه سوى الدروب العسيرة الملتوية؛ ليحصل على ما حصل عليه غيرُه بأشدِّ السبل

بدائيَّةً وأقلَها تكلفةً، ألا وهي تركُ انطباعاته الفنية، وتسجيلُ أوجاعه في لوحات، وفوق الجدران، وعلى كفي يديه!

لقد حلَّ التناقضُ والخلاف ميراثًا مرًّا في دمه، لكم يؤلم هذا، ويكلِّف المرءَ كثيرًا من وقته وصحته وحالته العقلية، لقد هرب من محنة البلاط، وهم يطاردونه الآن محاولين إرغامه على العودة، هيهات.. فهم واهمون، ليس إلا قوةٌ واحدة تستطيع أن تخرجه من هنا، وتردَّه على أعقابه إلى الجحيم الذي منه هرب، أن يعطوه ريشةً وقلمًا وإزميلًا ويقولون له:

- «ارسم كلَّ ما تريد ونحن لن نتدخل!»

لن نملي عليك رؤانا السخيفة، أو نرغمك على تزوير الحقيقة، أو نجبرك على تصوير الزوان في شكل باقة زنبق، أو ندع ثُلَّةً من الرهبان الأغبياء، الذين يتظاهرون بفهم كل ظواهر عالمٍ فرُّوا منه وخاصموه، حتى لم يعودوا يعرفون عنه شيئًا بالحق، هؤلاء لن يتدخلوا في عملك، لن يقولوا لك لماذا يبدو القديس أنطونيوس حزيناً هكذا بينما هو يصنع معجزة؟!

وهل يمكن صنعُ معجزة إلا للحزانَى بواسطة الحزانى أيها المغفَّلون؟ كان القديسون كلهم حزانى، بائسين بؤسي وأكثر، والربُّ نفسه كان أشدَّ الرجال بؤسًا، حينما كان رجلًا ذات مرة، هذه هي الحقيقة التي ينكرونها، لكنك واجهتَهم بها، لهذا يكرهونك، لهذا ينقِمون عليك، ولكن لعلَّك تجد جنَّتك هنا في هذا البيت القاتم متجهِّم الجدران، وخانق المساحات!

تفقَّدت «مانويلا» كل شيء بوجهٍ لا تتغير تعابيره أبدًا، ولا يظهر للحالات البشرية أثرٌ على تجاعيده الرائعة الثابتة، تجاعيد الأم الراسخة، التي يبدو وكأنها وُلدت بها ومعها، ثم تأفَّفت عيناها معترضةً على ضيق البيت، وتلاصُق أجنحته الصغيرة، وعدم وجود منفذٍ للهواء فيه، فضحك سيدها قائلًا بحنان لا يتقنه إلا صوبها هي:

- «ستجدين مكانًا تنشرين فيه غسيلك يا «مانويلا»!»

فهتفت دون أن تضحك، أو تُبدي رغبةً في مناقشة الأمر، وهي تدير رأسها فيما حولها:

- «إنني أهتم بك أنت يا سيدي لا بالغسيل!»

فتعالت ضحكةُ «فرانثيسكو» لأول مرة منذ فترةٍ لا يتذكر حسابها، غير أن الوصيفةَ الحازمة واصلتْ بجدِّية تامة:

- «فمانويلا» العجوز تعرف كيف تجفف الغسيل المبتلَّ حتى في القبو الرطب.. إنها موهبة!»

فأجاب المخدوم ملاحقًا فرصة سكوتها العرضي، لالتقاط أنفاسها، قبل أن تقطع عليه خطَّ التعليق على ما تقول أولًا بأول:

- «أنتِ موهوبة يا سيدتي، أنا أعرف ذلك!»

فاستدارت المرأة لتواجهه رجلًا لرجل وهتفت مستنكرةً:

- « أتسخر مني يا سيدي؟!»

سريعًا أجاب «فرانثيسكو» ممازحًا:

- «نعم إنني أسخر منك يا «مانويلا»!»

عندئذ ابتسمت «مانويلا» وقد سُرِّي عن قلبها!

بعد لحظة هتفت معلنةً استعدادها الدائم لتكون عونًا مفيدًا لسيدها المحتاج إليها بشدة:

- «سننظفه ونجدِّد قديمَه.. وسوف ننشئُ جناحًا جديدًا أو اثنين!»

بوغت الهاربُ المتحفِّظ بخطط خادمته، التي أحسَّ أنها كفيلة بتعكير صفو عزلةٍ وبطالةٍ طالما تاق إليها، وقال مصرًّا على إظهار احتجاجه وتأفُّفه:

- «إن زوجتي نفسَها لا تجرؤ على التخطيط لقلب منزلي رأسًا على عقب، وإجباري على تبديل كل خططي، كما تفعلين الآن يا سيدتي الطيبة!»

لكن الخادمة الجادَّة أجابت بلا لمحة سخرية أو هذر:

- «إنني لستُ زوجتك يا سيدي، أنا خادمتك، ولذلك فسوف تنفذ كل ما أشير به عليك!»

تجهَّم وجه «فرانثيسكو» للحظة، ثم انطلقت أساريره، ومشى عبر الدهليز إلى الغرفة الرئيسية اليمنى، ولم يكن بالبيت سوى غرفتين وحسب، وهو يضحك، وقد تأكد أنه بالضبط سوف ينفذ كل ما تقوله «مانويلا» الطيبة، حتى وإن كان لا يوافق خططه الخاصة في تلك اللحظة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(5)

عصيدة الشر!

ماذا يفعل الإنسان حينما يجد نفسه وحيدًا؟!

يلجأ إلى صديق يبثُّه همومه، يُلقي على صدره بأحماله، يتخفف عنده من ذنوبه وخطاياه وشكوكه المُمْرضة، يصرِّح له بكل ما يخيفه أو يخافه، يعود مطمئنًّا خاوي النفس إلى مضجعه، فيرقد وينام ملْءَ عينيه قريرًا. إنه فردوسٌ يشتهيه كل امرئٍ، غير أن هذا لا يحدث في الواقع، وذلك لأنه ليس للإنسان في النهاية من رفيق حقيقي سوى نفسه، سرُّه الأعظم لا يجب أن يطَّلع عليه أحدٌ غيره هو، حتى ولا الربُّ نفسه. لقد كان «آدم» يضمر الرغبة في الخطيئة في تكوينه، لكنه لم يُدَنْ إلا عندما نفذها، عندما أعلنها ولم يكتمها، خطايانا تموت حينما لا يطلع عليها أحدٌ سوانا؛ لذلك فما أعظمَ الخطايا التي غفرها الرب دون حاجة إلى سفك دم، الدم يُراق من أجل المُعلِنين لا المُضمِرين، ليكون خلاصًا لنا ولهؤلاء الذين أشاعوا ما يعتمل في أنفسهم، أمَّا في الواقع فما أشدَّ نفوسَنا تلوُّثًا ونجاسة!

حتى «مانويلا» الطيبة لا يجرؤ على أن يقول لها ما يحسُّ به فعلًا، هل ستفهم إن فعل؟!

إنه على ثقة من أنها ستفعل، لذلك يكتم سرَّه داخله، يكتوي بحرارةٍ لا يشعر بها ولا يعانيها سواه، يتركها تتسقط الحقيقة ندفًا من أحاديثه المقتضَبة.. من حالاته الطارئة.. من أمراضه الميؤوس منها، يدعها تعرفه وهو أخرس صامت لا يتكلم، لا لأنه فقط لا يسمع نفسه، بل لأنه لا يودُّ أن يسمعه الآخرون أيضًا، لكنْ يداه اللعينتان تفعلان!

إنهما تفهمان سريرته، وتطَّلعان على كل هواجسه المحزنة، خواطره السوداء، يُفشيها همسًا في نفسه الخرساء، لكن أصابعه تسمع الهمس، وتترجمه، وتحوِّله من فتاتٍ من الأمور التافهة إلى خواطرَ وهواجسَ وأحلامٍ لا تفسير لها، وتخلع عليها حياةً تخيفه هو نفسه، من المرعب أن تتجسَّد كوابيسك.. أن تُعطى روحًا واسمًا وشكلًا وقدرةً على الحركة، يظل الشيطان حبيس الأدراج، ملعونًا في أسفار القديسين وصلوات الأنبياء وقصص بطولات الآباء، لكنه ما إن يتحركْ ويصِرْ صورةً حية، حتى يلوذ كل هؤلاء هاربين. مَن الذي واجَه الشيطان في الحقيقة؟!

لا أحد، لم يعلن الشيطان عن صورته الحقيقية مطلقًا، ولم يعرفه عليها إلا الرب، والربُّ- وحده- يستطيع أن يجابهَ بجبروته وحشية خواطر الرجل رهينِ

حبس العلّة والصَّمم، وحبس البيت الذي تكاد جدرانه تطبق على أنفاسه فتزهقها، وحده الربُّ مَن يملك القوة لكي يدفع كل هذه الوحوش والمسوخ، التي تحتشد في أحلامك يا «فرانثيسكو» بعيدًا، ويجردها من مخالبها وأنيابها، ويطمس عيونها البشعة المخيفة، ويمحو ملامحها الوحشية، فتغدو صورًا مسطّحةً بلا روحٍ ولا ملامح، يعيدها سيرتَها الأولى؛ لكي يستطيع «فرانثيسكو» العجوز المخبل بالفزع أن ينام. لكن َمن يهتم بنومك أيها العجوز؟ هل تظن الربَّ يحشد جوقةً من الملائكة ليحملوا النوم طمأنينةً وراحةً إلى جفونك المقرَّحة؟!

أين تبخَّر إيمانك يا رجل؟ وأين ذهب كلُّ ما عشتَ نصف قرن لأجله؟!

جاءني الشيطان ذات ليلة، كان حلوًا وسيمًا طيب الرائحة، مواطنًا حضريًّا يرتدي حلةً باهظةً وأغطيةَ ساق، وله قبعةٌ لطيفة، لم يكن قبيحًا ولا منفِّرًا. فُسيفساءُ الكنائس التي أسرف الرسامون في تزييف ألوانها هي القبيحة والمنفِّرة. كان محبَّبًا كرجلٍ نبيل خارجٍ لتوِّه من إطار صورة، لا خوف ولا فزع، إنه لا يهدد بل يُهدهد، لا يتوعَّد بل يسوق أجمل الوعود، كن لنا نكن لك، لا أحدَ علينا، فلا أحد يجرؤ. جاءني الشيطان ذات ليلة، فقبِلتُ أن أكون مبعوثًا له، لم أندم إلا حين رأيت الكاهن من قفاه، هذا القفا العريض جديرٌ بشيطانٍ حقًّا، بل ربما كان هذا هو الشيطان الذي أعثر «آدم» فعلًا. لا يمكنك أن تكره شرًّا لم ينلْك منه أيُّ أذًى، وهكذا يمكنك، إن كنت تعيش حبيسًا موصومًا، محكومًا عليك بسُبَّة العجز والقصور، ونفسك الجامحة تطاردك بلا هوادة، يمكنك حينها أن تحب الشيطان حقًّا!

جاءني الشيطان ذات ليلة، فلم يروعني إلا إنَّه لم يأتِ ثانيةً، لم يدفع إلى بأية عقود لأوقِّعها بدم، ولم يسألني أن أهب له روحي، لقد فعلتُ من قبل أن يحضر، لم يربطني بعقد لا ينفصم إلا بحياة غيري أو موتي أنا، لا شيءَ من كل هذا، لذلك هتفتُ مستنجدًا بملكة السماء:

- «يا «مريم» أعيدي الشيطان إليَّ، قولي له أن يأتي، إنني زبون ممتاز، لن أساوم كثيرًا. يا عذراء.. إن العالم ضيقٌ ومحدَّبٌ للغاية، فهلّا حملني عدوُّ ابنك على أجنحته إلى الجحيم لأستريح؟!»

ربما هتف «هايزمان» التعيس البائس بذلك النداء ذات ليلةٍ مظلمة ما، وحيدًا مختنقًا بين جدار الكنيسة وفسحة الشارع، السجن الذي حبس نفسه فيه اختياريًّا، لكنَّ أحدًا لم يسمعه؛ لأن العذراء لم تكن لتلبي نداءَ رسام، والشيطان لا يشتري أرواحًا كما يزعمون؛ لأنه ليس بحاجة إليها. كان «هايزمان» مجنونًا، عاش مجنونًا ومات مجنونًا، لكن «جويا» عاقل، على الأقل يقولون ذلك، لم يختطفه إبليس في عربةٍ ويمر به عبر السماء، مثلما

فعل مع دكتور «فاوست» زبونه الأشدّ ربحيَّةً ورغبةً في الاستحواذ، لكن ما أكثر ما تراءى له! صورةٌ غير مكتملة، شبحٌ مهتزٌّ، صورة متموِّجة، في قبو منزله الصامت الساكن. لقد أرسل «مانويلا» إلى الطابق الأعلى لينعم بوحدةٍ تعذبه. تواصل المرأةُ الطيبة نشاطها في الطبقة الثانية من المنزل، تدق بدون توقف، تصنع وجبةً ما، أو ترفو الثياب، أو تقص له أقمشةً جديدة ليرمي عليها ألوانه التي لم يعد لها من معنًى. وجبةٌ لن يأكلها أحد غالبًا، وثيابٌ سُتهمل حتى تبلى ثانية، ولوحات قماشية لن يمسَّها الفنان أبدًا، فقد فتنته الجدران الصامتة، أغرته بسحرها وبتلك الحقيقة البسيطة الرائعة:

«يمكنهم أن يسرقوا لوحاتك يا «فرانثيسكو»، لكن مَن بوسعه أن ينهب جدران بيتك؟!»

يا لها من فتنة طاغية، أنفاس سحر لم يجرِّبها من قبل إلا مع نفحات «كاتيا» العطرة، وهي ممددةٌ أمامه، كتلةٌ من الإغراء، ونبعٌ من الشبق يريد أيُّ رجل أن يقحم نفسه فيه، فإما أن ارتوى وأشبع ظمأه، وإما أن غرق مدفوعًا بغروره، مثلما حدث لـ»نارسيس» البائس المغفل!

من يستطيع أن ينهب جدران بيتك؟!

من يملك من القوة ما يكفي ليحمل أطنانًا من الملاط والحجارة ويذهب بها بعيدًا؟!

أهذا هو سبب الطمأنينةِ الغريبة التي تشملك الآن، في ظلام الليل وحيدًا، راقدًا في قبوٍ عفن ضيق؟ لم يكن البيت عفنًا ولا ضيقًا عندما ابتعتَه، لكنه تضاءل فجأةً، وراح يتعفَّن ويتفسَّخ بمجرد أن وضعتَ قدميك فيه، لن نتكلم عن المرأة الطيبة الآن، فلا تحطُّ قدماها في مكان إلا ويفوح برائحة الأعشاب المنتشرة، ومناظر الريف المحبَّبة، إنها تخلق الحياةَ وتهبُها، أما أنت فلم تعد تعرف غيرَ مداعبة الموت ومناورته، وحيدًا متدثِّرًا بغطاء ثقيل، في حرارة أغسطس القائظة!

ما لك يا بُني؟ لمَ ترتعش أوصالك هكذا؟!

ترتعش بقشعريرة من القرِّ بينما تتفصَّد عرقًا كريهًا غزيرًا!

يوشك الدود أن يرعى في بدنك، وأن ينتشر خارجًا من لحمك المهترئ المفتوح، من العسير أن يجتمع الصيف والشتاء في لحظة واحدة، فكيف يصدِّق إنسانٌ- حتى ولو كان «مانويلا» الطيبة نفسها، التي لم تخيب رجاءك ولم تشك في خبر لك أبدًا- أن يجتمع الفصلان اللّدودان، أقدمُ عدوَّين في تاريخ الأرض، على جسد إنسان واحد هو أنت؟!

كان الصيف والشتاء يتصارعان خفيفًا قبل أن يقتل «قابيل» أخاه البريء الصديق، لكنَّ واحدًا من الفصلين لم يتمكن من القضاء على خصمه، فالطبيعة أقلُّ عدوانيةً وشراسةً من البشر، غير أن المعركة القديمة المؤجَّلة، يبدو أنها احتدمت الآن. إنك لا تستطيع أن تحدد ما إذا كانت تحس بحرٍّ يدفعك إلى الركض مُيمِّمًا صوب أي بقعةٍ مغمورة بالمياه، لترمي بنفسك فيها، تطفئ حرارة روحك المحرقة، أم أن البرد يجمِّد أوصالك، ويجعلك تلتحف بدثارك طالبًا الدفء في هذا الصمت والسكون والظلام، حيث لم تسمح لرفيقتك أن تشعل مصباحًا غازيًّا ليؤنس وحشتك. في الليالي المقفرة لا يسترجي إنسانٌ عاقل أن يستنفد ضوء الشمس المحفوظ في القمر، أو يتكئ على مصادر الطبيعة، مريقًا أكوامًا من الحطب والأخشاب، ومهدرًا من الغاز الثمين الشيءَ الكثير، منجزات الحضارة التي لا بد أن يكون الديوان المقدَّس ساخطًا عليها. يجلس الكاهن في ضوء الغاز ليلعن العلماءَ والمهرطقين وجميعَ من يملك عقلًا ناقدًا، أو لسانًا يستطيع أن يتهجَّى حروف كلمة لا!

- «لا لا يا «مانويلا « لا ترعيني كطفل رضيع!»

دفعها مبعِدًا إياها بصوته، جاءت حاملةً مصباحها لتتفقَّده، لكن هذه الرعاية الدؤوبة كانت آخر ما يحتاج إليه، إنه يحتاج إلى أن يُترك ونفسه، ويُترك مع نفسه، يُترك لنفسه، دوامة التفكير التي شملته كان لا بد لها أن تؤوب كموجةٍ مخلصة إلى شاطئها الصخري، متكسرةً عليه. تكسَّرت خواطره وتبعثرت، ثم حضر سلطان النوم ليجمع البقايا ويلملم الشظايا، ساق النومُ إليه نفسه، بإغراءٍ ما بعده إغراء، مقدِّمًا ذاته كحيلةٍ لطيفة يبتدعها طفلٌ صغير، لا تملك أمام لطفه إلا أنْ تبتسم، أو تلوذ بالصمت، وتحمله إلى سريره، ليغلق أجفانه المقرَّحة بالإيغال في السهاد.. وينام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نام فعلًا.. نام تمامًا، لأول مرة منذ ليالٍ عدة قضاها يحلم بالنوم ويستيقظ وهو يحلم، لكن الهمس من حوله لم يتوقف. ثمة حياةٌ كاملة.. حضورٌ قوي.. وجودٌ كلِّي فوق الإدراك والتصور، يحتلُّ هذا البيت ويستوطنه، مخلوقاتٌ من عدم، لا أجساد ولا أطراف لها، بل رؤوسٌ فقط، رؤوسٌ شائهة ضخمة، ووجوهٌ متقلِّصة ساخرة ومترصِّدة ومخيفة ومهددة، وجوهٌ تغيب عنه معظم ملامحها، تتلاشى مناوِرةً إياه، لكنَّ ألسُنَها لا تتوقف لحظةً واحدة عن الهمس والكلام، وإطلاق النكات البذيئة. بالأمس جعلوا منه موضوعًا لسهرتهم، وأطلقوا عشراتٍ من النكات والمُلَح الماجنة ضدَّه، نعتوه بالأصم، لكن كيف يكون أصمَّ وهو يستطيع أن يسمعهم بوضوح؟!

لم يبيِّنوا له تلك النقطة، وهو لم يتقدم بشجاعة طالبًا منهم شرحًا لهذا اللغز، لأنه يخاف أصابعهم الممدودة، ذات المخالب المستطيلة الضخمة حقًّا.

الغريب أن لهم أصابع وأظافر، برغم أنه ليست هناك أيدي ولا أقدام، وجوهٌ وأصابع فقط، أيُّ نوعٍ من الكينونة هذا؟!

إنهم لا يأكلون ولا يشربون، لكنهم يسرقون الطعام من الحمقى والعميان بحماس، مع أنهم ليسوا بحاجة إلى الأكل مطلقًا. ليلةَ أول من أمس نهبوا فطيرةَ الكرز التي خصَّته بها «مانويلا» الطيبة، سلبوها من طبقه، ورآها وهي ترتفع في الهواء، كحلمٍ سعيد يتبدَّد، بينما تتألَّق قشرتها العلوية، التي حمَّصتها «مانويلا» بإسراف وغطَّتها بالزبد الطازج، وتغيب في هوَّةٍ سوداء، انفتحت أمامه من حيث لا مكان، ووراءها ظهرَ وجهٌ مشوَّه يتقلَّص ضحكًا ومجونًا!

إنهم يداعبونه.. هؤلاء السفلةُ الأشرار الذين يسكنون البيت معه، الذين ربما احتلوا البيتَ قبله، عندما كان مالكه الأصمُّ الأول يقتنيه، ويتحسس الجدران باحثًا عن ثغرة يتسرب منها الصوت إليه، فيعيد إليه حاسَّته الميتةَ المتلاشية. هنالك.. وفي هذا الزمان، الذي انقضى إلى غير رجعة الآن، كان هؤلاء هم مُلَّاك البيت الحقيقيين، ربما عادوا يطالبون بحوزتهم، يتشددون في الحرص على أملاكهم، ويضعون الخطة تلو الخطة لطرد الدخلاء، والمقتحمين الجدد بعيدًا، لكنه لن يستسلم أو يرتدَّ على عقبيه!

لقد قرر أن يواجه.. أن يتصدَّى للتحدي بتحدٍّ مماثل، أن يرمق مهدِّديه بعينين لا تطرفان. لو أظهرتَ لهم لحظة ضعف لافترسوك، أو لعصفوا بلُبِّك وساقوا إليك الجنون والخبال. ظلمةٌ تتكاثف فوق عقلك، فلا تدري إن كنتَ حيًّا أم ميتًا، لكنه لا يزال محظوظًا، فعلى الأقل يدرك- من دون شكٍّ ولا نسبة وهنٍ في يقينه قدرها واحد في الألف- أنه لا يزال حيًّا وفاعلًا وقادرًا على المواجهة والتحدي!

ألقى بدثاره السميك بعيدًا، ونهض وهو يرتجف، كمحمومٍ يغادر فراشه بعد رقادٍ طويل، أحسَّ صخبًا في أعماقه، دُوارٌ ورعدةٌ ورغبةٌ في القيء، كلُّها عوارضٍ وهنٍ جسدي بوسعه التغلب عليها، نهض مترنحًا وهو يصيخ السمع محاولًا أن يعرف بما تهمس الوجوه، ماذا تقول، وأيَّ رسالةٍ تحاول أن تنقلها إليه، بسخريتها اللاذعة الممجوجة:

- «كان هناك رجل أعمى يتحسس الجدران ثم ... «

تقطع الصوت وضُعف، تلاشى في العدم تاركًا عبارته المريرة معلَّقةً في الفضاء. كان بإمكانه أن يشمَّ رائحة الكلمات ويرى أشباحها، هذا وجودٌ عجيب، لا يُسمع صوتُه فقط، بل يلتهم الكلمات ويُخرجها من جوفه بشكل صور.. بورتريهات.. لوحات متقنة. حريٌّ بك أن تتعلم فن الرسم منهم يا «فرانثيسكو» العجوز!

يبدو أنك أضعتَ عمرك سدًى، فلم تعرف أبدًا كيف ترسم الكلمات، صنعتَ تلالًا من الرسوم والصور والدق القاسي على النحاس، ولا واحد فيها قادر على النطق، ولا واحد فيها يستطيع الصراخ، لوحاتٌ صماء بكماء، مثلك تمامًا، تقع تحت أعين المتفرجين كليلةَ الحس، فلا تبدي أيَّ انفعال، فقط تستعرض نفسها كغانيةٍ بلا مواهب، كامرأةٍ بائسة لم تُؤتَ من مقومات الأنوثة سوى ملامح الجسد وتضاريسه. لوحاتك هكذا، تاريخك كله هكذا. كم رجلًا سمع لوحة لك وهي تصرخ وتلعنه وتسبه؟!

لو أوتيت هذه القوة العظيمة لما هِمْتَ على وجهك فارًّا من البلاط، لبقيتَ مثبِّتًا أقدامك فيه، وجاعلًا من «فيرناندو السابع» الأحمق الموهوم ورجاله هزؤًا في لوحة تعيش أبدًا، وتنطق كلما نظر إليها أحدُهم، وتخبره بالقصة كاملةً دون تزويرٍ أو تستُّرٍ على التفاصيل المخزية!

لم يُؤتَ تلك القدرة للأسف في ماضيه، غير أنَّ الأوان لم يفُت بعد، وربما كانت هجرته المباغتة القسرية كنبيٍّ طُرد من وطنه، يتبعه السفلةُ والهراطقة باللعن والتصفيق، لها حكمةٌ أكبر مما يستطيع بشرٌ أن يدركه. وقف على قدميه، وتلفت حوله باحثًا عن أسلحته.. ترسانته التي طالما واجه العالمَ بها وغلبه.. فرشاته، وألوانه، وأقلام الفحم، ومُدى التلوين، وشظايا النحاس المفضلة لديه، كلها حاضرة هنا، متروكة، يغطيها الغبارُ، ويتهددها البلى والعدم والنسيان الأبدي، الشبيه بالموت، الأشد قسوة وتضليلًا منه، لا يترك الموت شيئًا إلا وأقحم أنفه فيه، حتى أكثر الكائنات حياةً وتحدِّيًا للفناء، حتى الفن نفسه معرَّضٌ للموت، حتى أصابع الفنان التي تقاوم الموت، تموت وتفنى في النهاية، وتلتهمها الديدان، لكن في كل الحالات فمادام كل شيء يموت فلمَ لا ننتفع به مؤقتا طالما ظل حيًّا؟!

لم يكن ثمة أوراقٌ أو لوحاتٌ قماشية أمامه، لقد تخلص من كل ما يربطه بماضيه، معتقدًا أنه لن يستطيع أن يرسم مجددًا ما حيِي، عدا الألوان وذكرياته الصغيرة التي يسهُل حملها، كما يسهُل التخلص منها حين تتأكد من كونها أضحت عديمةَ النفع، حملًا عليك، ورطةً صغيرة رائعة. إن الحياة عادت إلى أصابعه لكن العالم أمامه ميت هامد!

هدأت حركة «مانويلا» في الغرفة العلوية، لابد أنها خلدت إلى النوم، وساد الظلام، أُطْفِئ المصباح الوحيد الساهر في البيت وبقي وحيدًا في العتمة الباردة، التي ينيرها ضوءٌ خابٍ لا يصل إلى أطراف حجرته، فيتركها تغرق في ظلمة مقبضة، هناك تختبئ الوجوهُ الشائهة ذات الرؤوس الضخمة والمخالب المرعبة، لا يرغب في اقتحام منفاهم، أو التلصص على مخبئهم المحصَّن، لن يدسَّ رأسه في فتحة نافذتهم ليقطعوها، وهم يطلقون الضحكات الساخرة الماجنة، لا أمان لهم وجديرٌ به أن يأخذ حذره، تلاشت مخاوفه حينما قبض

على فرشاته. ساهمًا راقب ألوانه، فانجذب بلا تحفَّظٍ إلى الرمادي الشاحب، والأسود القاتم اللامع، واللازوردي بوعوده الكاذبة، التي تأتي كلها من البحر بصخبه ومجونه ولحظات غدره الكثيرة جدًّا، عافت نفسُه كلَّ لون مبهج ومفرح ومُوحٍ بسعادةٍ لا يستحقها الجنسُ البشري. لقد وُلدنا في الظلام وعلينا أن نعيش فيه، معلنين الإخلاص والطاعة والوفاء لبذرتنا سيئةِ الحظ، وللجدران التي تحيط بنا، وتكبِّل حريتنا، من كل جانب، علينا أن نقبِّل قيودنا، وأن نلثمَ بشفاهٍ مكتنزة أساورنا الحديدية وجدرانَ سجننا، ليس هذا فقط، بل أن نزينها ونلونها ونكتب فوقها قصتنا، ربما جاء سجينٌ غيرنا، في ألف سنة أو أكثر، وتمكن من أن يقرأ رسالتنا المحفوظة، ويعيها ويفهمها جيدًا. مدَّ يدًا ترتجف ومسح رُضابًا حلوًا سال من بين شفتيه، يبدو أنه بقايا فطيرة «مانويلا»، التي لم يأكلها، وربما الوجوه الشائهة لم تسطُ على طعامه فعلًا لأن أفواهها المخيفة الخاوية من الأسنان، تنفذ إلى معدته هو، ربما كانوا أصدقاءه في النهاية، أو ملائكته الحارسين، أيًّا كان.. فقد قرر أن يتجاهلهم، ويمضي قدمًا فيما هو مصرٌّ عليه. اقترب من أول جدارٍ قابله في وجهه، نفخ ليلقي أتربته بعيدًا، طبقة خفيفة من الغبار الذي لا يكاد يلُحظ بالعين، إن مجهودات «مانويلا» مجديةٌ دائمًا، حتى وإن كانت تؤذيه أشدَّ الإيذاء في بعض الأحيان، لكن لا طريق وسط بين الخير المطلق والشر الكامل، مع أنه يمكن- في النهاية برغم ذلك- توحيدهما في شكل كائن لا جسم له وبرأس ضخمة، ووجه وأصابع وحسب، نصف كائن لا هويَّة ولا نوع له، شيءٌ خارق وفوق الطبيعة، وهنا، في هذا الملجأ المنعزل، تحتشد كل صور وأشكال ما وراء الطبيعة، كل صنوف الشذوذ والخَرق الفاضح لكافة المبادئ والبديهيات، التي عرفها الإنسان، هل عرف العالم مخلوقًا له رأس ولا جسد له من قبل؟!

وهل عرف أيضًا رجلًا يعصر عقله ليرمي موهبته وحيدةً على جدار في بيت منعزل؟! لوحة ثمينة لن يراها أحد قط، لم يحدث من قبل أن عاش فنان لنفسه، أو صنع فنان عملًا لنفسه، إنها المرة الأولى، ولعلها ستكون الأخيرة يا سيد «فرانثيسكو»!

تمنَّ ذلك لنفسك، غير أن أحدًا لن يشاطرك أمنيتك أو يصلي من أجل تحقيقها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح رُوِّعت «مانويلا بايو»، التي كانت في يوم ما تحمل اسم «مانويلا بوسكابيتاس»، روعت إذ استيقظت في ميعاد صحوها المبكر لتجد جدارًا كاملًا من الغرفة السفلية وقد اختفى، لم يُرفع من مكانه بالطبع، أو يحمل أحدهم معولًا ويقوِّضه، بل ظل في موضعه، غير أنه عمليًّا لم يعد موجودًا، إذ غطَّته طبقة من الزيت والألوان، ومناظر شاسعة الامتداد، تُظهر صورًا وحشية من

الطبيعة، الطبيعة البشرية، التي قُدِّر عليها أن تشوِّه وتُقبِّح كلّ شيء جهدت في صنعه وتجميله، طوال سني حياتها الطويلة، هناك فوق الجدار كان رجلان، أحدهما بدا لها سقيمًا يتعجَّل هلاكَه، أما الآخر فبدا مرعبًا، رأسٌ لا يسترها اللحم، عظامٌ عارية، وأكثر ما يخيف في العظام العارية ليس أنها تؤكد الموت، بل أن تحاول تقليد الأحياء والتشبه بهم، وقد كان هذان النموذجان البشريَّان، مفرطَي القبح، يعكفان على طبق حساءٍ يأكلان منه، كان المنظر بشعًا، وما كانت لتعطيهما من قِدْر حسائها ملءَ ملعقة، لو أنهما وقفا على بابها يستجديان، بهذه السِّحنة؟!

يا للسماء! ماذا جرى لسيدها ليرسم شيئًا قاتمًا ومرعبًا كهذا؟!

تلفَّتت حولها، وهي تضع يديها، كأنها تصلي مستنجدةً بجند السماء، متقاطعتين فوق صدرها، باحثةً عنه. كان ممدَّدًا في الركن على الأرض، لا فوق سريره الصغير، ملتفًّا بأغطيته وكأنهم في عزم الشتاء، ناعسًا تمامًا وقد نفدت طاقته. راقبته للحظة من موقفها الحالي، ثم اقتربت منه حذرةً أن يُحدث خفُّها الخشبي الرنان صوتًا على الأرضية الحجرية، وجثتْ على ركبتيها إلى جواره، تفقدت ملامحه الناعسة المرهقة، في هذه اللحظة اعتراها الغم، وقد أدركت فجأةً ما يحدث هنا، إنه لم يعد إلى الرسم بل إنه يهرب منه، ويهرب من عقله الصاخب المتمرد بطرح فضلاته خارجًا، يتخلص من خواطره وأوهامه، يلقي بأحلامه المقبضة المرعبة إلى الخارج، لا بد أن صخبًا ونزاعًا شديدًا تحت هذه العظام الناعمة، التي تحيط بعقلٍ عذبه الظلام واختلاطُ الأوهام، ومرارة الواقع الذي لا يناسبه!

ملأتها الشفقة، فقررت أن تُسدي إليه معروفًا تتقنه دائمًا، أن تدعه غارقًا في سباته يجترُّ أزمته وحيدًا، وسط رؤًى مفزعةٍ، وبحارٍ مظلمة لا تعرف عنها شيئًا، حتى يستفيق لحاله، مستردًّا أخيرًا قدرته على أن يصدق، ويتقبل بشجاعة، حقيقة أنه لا يزال حيًّا، ولا يزال عليه أن يواجه هذا العالم ردحًا آخر من الزمان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(6)

صلاة دامية من أجل قاتلي عمانوئيل!

ثمانيةُ حملانٍ تمرح فوق التل المعشوشب، ثمانية حملانٍ لحيمة سعيدة، تتواثب مرحةً وتلتقط الأعشابَ الرخصة، لا تضايق أحدًا ولا تزعج مخلوقًا، ثمانية سُمان والسماء مفتوحة فوقها ترمي بالضوء والندى خفيفًا، سعادة مطلقة في جنةٍ مسوَّرة، جنة الأرض التي حُكم عليها أن تتنعَّم فيها كل المخلوقات، عدا سيد المخلوقات، الكائن الذي صمَّم الربُّ بنفسه خطةً لإنقاذه وتخليصه. لم تفلح أي خطط ولم تُجدِ نفعًا، أريق الدم الطاهر سدًى فوق الأرض المدنسة، والشعبُ بأفواه قبيحة يطلبون اللصَّ ويُدينون منقذهم. ظلامٌ فوق ظلام، عتمةٌ كاسية تعجز ألفُ نجمة عن تبديد سطوتها أو تخفيف قيودها، ومن بين الأمواج المظلمة، التي تضرب شاطئَ محيطٍ لا أول له ولا آخر، ظهرت امرأةٌ، انحسرت الأمواجُ الهائلة عن وجهٍ مليحٍ حسن التقاسيم، منمنمٍ دقيقٍ يُظهر حسنًا متدفقًا. نبعٌ صافٍ يحجب زرقةَ السماء وصفاءها بما أوتي من خيرات، ويغيب العقل بفتنته عن أغواره السحيقة، وحشٌ في الأعماق ينتظر، آكلُ جيفٍ نهمٌ وذبَّاحٌ شرس لا يُثلَم حدُّه، حتى وإن نحر ألفَ رأسٍ تستحق القتل، امرأةٌ مخيفة، وأخوف ما فيها هو فتنتُها المُستدرجة، تلفُّ نفسها بثياب ثمينة، وتغلق على المتلصصين سبيلَ الاكتشاف بتغطية جُمَّة شعرها، التي تنسدل منها خصلاتٌ ذهبية تسرُّ الناظرين، ووسط الأمواج الساترة يتراقص جسدها، يتموَّج ويتمضَّغ، تخلع عنها ثيابًا سودًا، وممسوحًا متربة قذرة، ثيابَ الترمُّل التي فرضتها عليها الشريعةُ التي كُتبت بدمٍ مسفوك، وأُلغيت بدم مسفوك آخر، تنزع سترَها البالي المحزن فيظهر تكوينٌ سماوي، امرأةٌ كاملة مصنوعة من خيال، قعيدةُ قعر بيتها وحبيسةُ ظلام العِلّية وسط جواريها، امرأةٌ أماتت نفسها لكن الخطر جعلها تستردُّ جرثومة الحياة فيها، تنهدت وهي تغسل مفاتنها غير آبهة برجلٍ أشيبَ يتلصَّص عليها عبر المكان، ومن زمن غير زمنها، رجل يشتهي وصالها لكنه لا يستطيع لمسها، دروب من الأيام، التي لا حصر لها، وبحارٌ مديدة وصحراوات موحشة تحول بينهما، هي هناك في أرض يهوذا القديمة، الأرض اللعينة التي أهدت الناسَ كلَّ خير وشر، وهو هنا، في منزل صمَّمه وموطن علَّته يتفصَّد عرقًا في حلم، لا يريد أن ينتهي، وبعد أن تفرغ من استحمامها تُهرع الملائكيةُ الوجه إلى ثيابٍ وارفة، زينة مبالغ فيها، وتصنع من أوصال كومة اللحم والعظم تمثالًا حيًّا للخلود. لا يُخلَّد إلا مبلغُ الجمال أو نهايةُ القبح، وفي هذه القصة تلاقى الاثنان وتقاطعا، ربما اتفقا للحظةٍ من الزمان أيضًا، ربما اشتهى كلٌّ منهما الآخر لبرهة، ثم استردَّ الزمن عصاه، مفرِّقًا بينهما بقسوة، وساطرًا لعنته الأبدية: على أحد البطلين في أي قصة أن ينزع روح الآخر ليعيشِ حياةً بائسة لا معنى

لها، كعيشة الضواري، مطاردةٌ تقطع الأنفاس، وهروبٌ مأمول يخيب دائمًا، ثم اصطيادٌ وافتراسٌ بالظِّلف والناب والمخلب، ودمٌ يلطخ وجه الأرض كلها، ثم تتكرر القصة بحَرْفيَّتها، فلا المفترس يشبع، ولا الفريسة تكفُّ عن محاولاتها الخرقاء للنجاة، هكذا يجري الزمان، خيباتٌ تتراكم ونجاحاتٌ يبددها التكرار السقيم، وينثرها عشبًا جافًّا مفتتًا في الهواء، يذروها ملحمة من الصبر، التي دُفع فيها ثمنٌ أكبر مما جادت به على دافعه، يا للعنة الأبدية!

«جوديث» هو اسمها، أرملةُ بيت «مراري» وسليلةُ «رأوبين»، الذي اقترف الزنا مع امرأة أبيه، رغم أنه كان بارًّا في عيني «يوسف» المغدور. لكل شيء وجهان متناقضان، حتى وإن كانت امرأةً صالحةً، فمن يستطيع أن ينكر لعنة النقمة التي تنساب عبر الأجيال من صلب إلى صلب، ومن ظهر إلى رحم؟ في بذرتها كانت نبضةً من جدها الأكبر، وخبالًا وضعت خطةً لجمع ما جاءت جيوش الأرض لتفريقه، «نبوخذ نصر العظيم» وجيوشُ بابل وقطعات آشور، من يجرؤ على الصمود لحظةً في وجوههم؟ من الأحمق الذي يفكر في التصدي لهم؟!

قالها «يهوا» غابرًا، عودوا إلى الرب ينقذكم، لكن رويدك أيها الرب فلمَ لا ترجع أنت إلينا؟!

تجديفٌ وهرطقة، أيها الخليع، كيف تجرؤ؟!

في ثياب جمالها وفتنة الكنز الذي أُخفي طويلًا في سراديب السفن الغارقة، الكنوز التي نسيها الجميع، خرجت من بين السحب وأطلال الماء، ابتلعت الأمواج بعضها واستردَّ البحر مياهه الشاردة، صفا الجو وألقت الشمس شعاعًا مرحِّبًا بالمأساة الجديدة، عاهرةٌ عجوز هي هذه الشمس، وبلا حياء تراقب المآسي والقصص المعادة بلا ملل، لا تتعب ولا تتدخل لتوقف الأمر، إنها بارعةٌ وفاهمة، فما من شيء في الحقيقة يمكن إيقافه، أو تحويل مساره!

على باب المدينة، حيث يلقي البحر بثقله، كان العاشق ينتظر، سيفُه يتدلَّى من جانبه متأرجحًا في غمده المزركش، ووردةٌ تهفو مكسوةً بحمرة الخجل بين يديه:

- «هلم «جوديث» الشريفة!»

فتبتسم له مغريةً وتردُّ بغنَج:

- «هلم سيدي نحتفل بسقوط بيت الرب!»

لا يطاول شيءٌ المرأةَ في قدرتها على تزييف مشاعرها، ولا يطاول العالمُ كله الرجلَ في غبائه بحضرة امرأةٍ فاتنة. تقدر المرأة على اقتلاع روح الرجل

بلا مقاومة، بينما يعجز رجال البرِّ وسفنُ البحر كلها عن دفع جيوش يقودها «إليفانا» الصنديد، «إليفانا «المغفل!

حمارٌ في شهوته كرجالٍ كُثرٍ غيره، ينظر ويأمل، يعبُّ الخمر منتظرًا لحظة سهوٍ وخضوع، آلهتنا معنا فمن علينا؟ كان للمرأة ربٌّ واحد، ولنا آلهة كثيرة، حتى جاءت الحكمة المزيفة فقالت: لنا ربٌّ واحد، وليس للمرأة أية آلهة. أخذْنا الربَّ منها وحبسناه لصالحنا، يصنع قانونًا ما نسترجي إقامته، أمرٌ هامٌّ أن تستفيد من آلهتك وتجعلها في خدمتك، وإلا فبالله ما فائدتها؟!

كل هذه النذور والذبائح مسفوكة الدم، والقرابين والصلوات، نتضرع إلى ربنا ونحجره على هوانا. كان «إليفانا» يعبد ربًّا على هواه، وكان للمرأة ربٌّ على هوى أسياد قومها، رنَّةُ خوف من ربٍّ لا يعرف سوى الانتقام والتنكيل، لا ترفع آلهة الرواقيين سيفًا، ولا تنشد أدعيةً للحرب. على قدر القسوة تكون الوحدانية ضرورة، وفي أرض الإغريق كانت الأرباب تصارع البشر وتمنحهم فرصة الفوز، أما في أرض الأنبياء فلم يصارع الربُّ إلا «يعقوب» واحدًا!

في خيمةٍ مسرفة الزينة، حيث كل شيء ضُمِّخ بشهوة، كل شيء مُحضر للفتنة والاصطياد، من يكون الفريسة حينئذ؟! ومن يكون صيادها؟!

الأسد حين ينام يصبح هدفًا سهلًا لغزالة شاردة، ربما تعقره انتقامًا لفصيلها المهدورِ دمه، الممددةِ بقاياه في مرجٍ أخضر وسط غابة لا حدودَ لها، أما إذا كان لديها خنجرٌ فإنها- بلا تردد ولا خوف- تقطع رأس السبع!

هجع «اليفانا» مطمئنًّا بقوته. لا يخاف الأقوياء غدرًا إلا ممن هم أقوى منهم، لكن الغارق في فتنته نسي أنه ليس أقوى من امرأة يغلبها حقدُها وخوفها، ضربتان في الرأس، ضربتان يا سيد جيوش الأرض، وماذا تتوقع؟!

أن تقضي المرأة دهرًا تجزُّ العنق وتبتُر في رأسك، ليكن خوف الله عظيمًا في هذه الساعة، ومخافة الناس أعظم!

أيِّدْني أيها الربُّ في هذه الساعة. وهكذا فعل، ما أحقَّكِ بأن تكون لكِ دعوةٌ مجابة من الرب «كجوديث» سواءً بسواء، أيِّدْني أيها الرب حتى إذا كنتُ مجدفًا مخرفًا، إنك أنت من صببتَ المرض في عروقي، وأحرقتَ روحي بحرارة الألم، إنك تعرف الضعف يا إلهي، وجربتَ أن تسمع ابنك يصرخ إليك:

- «إلهي.. إلهي.. لماذا تركتني؟!»

ولماذا تتركني الآن ثانية؟ مرة أخرى متخليًا رافضًا الاستجابة، الظلام يريم على روحي، والأشباح تتراقص من حولي، نفسي حزينة حتى الموت، إذا علَّقوني على صليب فلن أبالي، فما عاد في الروح أي طاقةٍ على المقاومة، لكنك رحيمٌ دائمًا، منحتني يدَيْن لا تمرضان، وأعطيتني حاسَّةً لا تعوق ولا

تتلف، جعلتَ «جوديث» عبدة شكورة، وجعلتني عبدًا متمردًا، إننا نشبه بعضنا جدًّا في نهاية المطاف، ألوي ألوي ثبِّتْ يديَّ، وأخرِج الدود الذي يرعى في هيكلي المتداعي، هيكلي المتعفن. طافت كل رؤًى مفزعةٍ برأسه وحطمت مقاومته، عازمًا على ألا يستجيب لنداءات مواهبه الطارئة زمنًا متطاولًا قادمًا. التحف «فرانثيسكو» بأغطيته الثقيلة، في حرارة الصيف تملؤه خواطره ببرودة تقرُّ جسده وتثلج أطرافه، لكن النداء تكرَّر، فلم يملك إلا أن يلبي!

نهض متجهًا إلى أول وجهٍ ناداه في وحدته، إلى جدارٍ خالٍ مبيضٍّ، لقد أُعدَّ المنزل لانتقاله إليه، دهنوا الجدران بالقبح وغسلوا الأغطيةَ والستائر، بيَّضوا كل شيء وأخفوا معالمه، مولَعون بالنُّسخ المتشابهة والأسطح والوجوه المقلَّدة، كل شيء عندهم له مقاييسِ جامدة، ونساء البلاط يتفنَّنَّ في تقليد بعضهن البعض، والرجال يحشون رؤوسهم بنفس الكلمات ويكررون نفس التصرفات. مرعبٌ هذا العالم بملله وتكراره. يتمنى لو كان في الجحيم شيءٌ من التسلية والتغيير، بحيرة الكبريت تبدو واعدةً ببهجة الاستكشاف، أما صرير الأسنان فلديه منه الكثير!

التقط سلاحه الوحيد في مواجهة العالم، الذي جرَّده من كل سلاح آخر يملكه؛ مخالبه وأنيابه التي لم تزوده بها الطبيعة. إن الإنسان هو المخلوق الوحيد تعيس الحظ، الذي لا تتفنَّن الطبيعة في تحصينه ذاتيًّا، فتدفعه إلى المواجهة مجردًا من كل سلاح ماضٍ، ضواري الغابة تغلبه بطبيعتها، أما هو فلا يهزمها إلا بتصنُّعه، بعلومه البائسةٍ التي أحرق عمره في تحصيلها، في مخترعاته ومصنوعاته التي تستنزف عمره وصحته وقوته، أسلحته الزائفة وأقنعته الوهمية، التي يتخفَّى ويتحصَّن خلفها، شبابه ورجولته وفتوَّته ومبلغ قوته، حتى إذا صار شيخًا فانيًا أدرك أنه في الحقيقة عارٍ من كل حماية، بائسٌ يرتجف في ظلمات الغابة العظيمة التي تحتلُّ الأرض بأكملها، وليس عليه إلا أن يختار طريقةً حسنةً يهلك بها، ويستسلم للموت مبتسمًا راضيًا، متظاهرًا بتفهُّم الأمر وتقبُّله!

أما أنت فلم تكن تتقبَّل مصيرك أو تتفهمه، إنها قسوةٌ وحشية أن تُترك هكذا لنفسك، وحيدًا في مواجهة ذاتك، أيَّ دفاع تسوقه يمكنه أن يخدع نفسك التي تعرف عنك كل شيء؟!

غائصة في وحشيَّتها الطارئة ظهرت معالم الوجه الجميل للمرأة الفاتنة، «جوديث»، التي تخلَّت مؤقتًا عن طبيعتها، أو ربما أعلنت مؤقتًا طبيعتها الحقيقية، التي غُلبت على أن تخفيها وتنكرها، منذ أعلنت القابلة غيرَ مستبشرةٍ أن المولود أنثي، لا ذكَرَ يحقُّ له الطعن والقسوة وممارسة قوته علنًا، ما أثمن تلك اللحظات التي يسمح لنا فيها العالم بإعلان ما أكرهنا على إخفائه طوال عمرنا، أن يزدهي سادتنا بأننا لسنا عبيدًا مطيعين جدًّا، نحسن

وفقط تنفيذ أوامرهم، والسير على الطرق الوعرة التي اختطّوها لنا، لقد جعلت الشريعة «جوديث» تابعةً راضيةً، والساعة سوف يتباهى أشياخُ مدينتها بأنها ليست كذلك، للحظة واحدة فقط من عمر الزمان.

كان المفتون مستلقيًا، فأخذت «جوديث» احتياطاتها، احتزَّت رأسه كمقاتل شرس من الوندال، مقتلةٌ عظيمة، لا ينافسها فيها حتى أشد سادة ديوان التفتيش قسوةً وإطاعةً لأوامر الرب!

أحسنتِ يا بنيتي!

إن الرجل السبعيني، الذي خابت له كل الآمال، وتحطمت أحلامه على صخرة قاسية، الرجل الذي غاص في البحر مثقلًا باللآلئ، وخرج منه طافيًا غريقًا متمسكًا بكتلة خشبٍ عفنة، طوق النجاة الوحيد المتوفر له، يزدهي بشهود عملك. أحسنتِ يا «جوديث» الذبِّحةَ والقِتلة وحزَّ الرأس الخاوية العنيدة، إن الرأس التي يظن صاحبها أنه أقوى من كل الناس، وأنه في مأمن من كل غدر وخيانة، لتستأهل دون ندمٍ قطْعَها وعرضها في السيرك:

- «انظروا الرجل المغفل، انظروا المأفون، لقد نام بين ذراعي عدوَّته!»

هنا تُفتح الستائر، وتدخل «جوديث» متعرِّيةً تستعرض جمالها بلا مواربة، تقدم وصلةً من الغناء، ثلاثة أيام وهي تصدح، ولا أحد يفهم ما تقول، لكن الجميع مشدوهٌ ومذهولٌ، كاهنةٌ من العالم القديم تغني، تقدم قصةً لم تحدث أبدًا، كذبة كبيرة، كذبة رائعة تستأهل النار، وهل خُلقت النار إلا للأكاذيب والذكريات السيئة؟!

ترقص والجميع يصفق، وليمة والكل يرغب في المشاركة، يتمنَّون غمْسَ أيديهم في الوعاء، والاغترافَ من العسل الشهي الذي يسيل أمامهم، «فرانثيسكو» كذلك غمس يده معهم، غيرَ محترزٍ أو متخذٍ حذره، فخرجت كفُّه ملطخةً بدم طازج!

وبهذه المداد الجديد، الذي أُعطي له منحة، راح يرسم الأكذوبة على الحائط، دم بلون الرمادٍ، جذوةٌ منطفئة لا تنفع أيُّ أنفاس حارة في إحياء شعلتها. «جوديث» متسلِّحة بخنجرها، بسلاحها الذي لم تزوِّدها الطبيعة به، تقف متصدِّرةً المشهد، إنها رأس الشعب مثلما أن الرجل رأس المرأة، والمسيح رأس الكنيسة، كل هذه الرؤوس الزائفة، التي تسقطُ بضربة واحدة، ببريقِ خنجرٍ غادر، في لحظة واحدة من عمر هذه الأرض العجوز العاهرة، لم يعكِّر شيءٌ صفوَ هدوء «جوديث» ولمعةَ السعادة في عينيها، إحساس الظفر ونشوة تحقيق الهدف، هذه امرأةٌ سعيدة الحظ على الأقل، فقد نفَّذت كل ما صبَتْ إليه نفسُها، وكل ما وعدت به شيوخ مدينتها اللئام المترصدين، كم

تمنَّوا لها الإخفاق بينهم وبين أنفسهم، فهم أسلاف «حنان» وأجداد «قيافا»، أيٌّ واحد منهم كان يتمنى لـ»مريم» أن تخرج سليمةً من المزود بطفلها؟!

غير أن «جوديث» خرجت ونجت وأفلتت، انحدرت إلى المدينة حاملةً رأسًا مبتورًا وقماشًا ملطخًا بالدم، مسحة المرضى من إسرائيل، الذين رفضوا كل دعاء رُفع فوق رؤوسهم، رفضوا المخلِّص وازدَرَوا رسلَه، وها هو «فرانثيسكو» العجوز يزدريهم بعد سبعة عشر قرنًا ونيِّف بطريقته الخاصة، يردُّ إليهم الصاع ممتلئًا، بيد امرأة لا تخاف شيئًا، ورأس يُرمى في وجوههم باحتقار، هللويا، يا لها من ليلة تقضيها وحيدًا في الظلام!

ابتعد الرجل أخيرًا مرتجفًا، متأملًا في حبورٍ مريضٍ ما صنع. على الجدار المقابل ظهرت امرأةٌ تُحسِن إخفاء مشاعرها وآلامها، تُظهر- فقط وبكل فخر- خططها، تتسلَّح بسكِّين وتنتظر فرصةً سانحةً لقطع رأس، أو تلتقط أنفاسها مشرعةً سلاحها فخورًا في الهواء، قبل أو بعد، أو بعد أو قبل، إن «فرانثيسكو» نفسه لا يعرف، لا يملك مفتاحًا للُّغز ولا تفسيرًا للمشهد، رسمتْه اللوحةُ ولم يرسمها هو، واستنفدت روحه، وأحرقت وقود نفسه القليل الضحل. وأخيرًا، وبعد أن اشتعل الفتيل وأضاء طويلًا، غلبت العتمة أخيرًا وأعلنت سلطانها، آب المرهقُ إلى فراشه مسترجيًا النوم، ملقيًا بنفسه تحت أقدام شياطين الليل:

- «خلِّصوني من الليل ومن وحدتي الطويلة!»

توسَّل مخلصًا، وقد علموه دائمًا في الهيكل أن الشيطان لا يرد نداءً من أحد ملهوفيه، لدى الرب مشاغلُ كثيرة، وأمور عديدة يهتم بها، أما الشيطان فعاطلٌ متبطِّلٌ منذ أول يوم للخليقة!

سرقه الكرَى أخيرًا، وسكنت- حتى حينٍ- خواطرُ نفسه المفزوعة المفزعة، وتراجع الرعب مخلِّيًا الطريق أمام الحقيقة الوحيدة المؤكدة، لا يمكن لإنسان الهروبُ من أسر جسده مهما فعل، ولا يستطيع بأي وسيلة أن يحمِّله فوق طاقته، دون أن يسقطا معا، غلب جسد «فرانثيسكو» «فرانثيسكو» نفسَه، وألقاه مرهقًا مكدودًا، خاويًا، كقعر مكتلٍ أكل الناهبون كلَّ ما فيه من شهد النحل، وتركوه صفصافًا لزجًا لا تُشبع لزوجته جائعًا، ولا تعوِّض النحل عما أسرف من جهد في اعتصار رحيق الأزهار وتجميعها، لكنه وجد طريقه إلى النوم على الأقل. ليسكنْ جسدك وترتَحْ هانئًا.. مع الشياطين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(7)

ليوكاديا.. الشمس في عين حمئة!

أفاق في غبشة الصباح الضبابي. كان شروقًا تعيسًا رماديًّا كئيبًا، جوٌّ رديءٌ محملٌ بسموم الأتربة والأمراض، والنبوءات القديمة عن أناثيما الميازما القاتلة، التي تحمل الموت مريرًا وقاسيًا إلى الشعوب الغافلة. صحيح أن العالم قد تغير لكن الناس لم يتغيروا، لا يزالون ضعافًا ومخدوعين، ومستعدِّين لتصديق كل الأكاذيب، بل والدفاع عنها والموت في سبيلها في بعض الأحيان، ومنهم «فرانثيسكو» الشيخ نفسه، وهو لا ينكر ذلك، بل يفتخر بأنه قضى جلَّ عمره مخدوعًا، ينفق أيامه في الدفاع عن حياة عريضة واهية وغير واقعية، هنا في القبو الرطب المعتم، الذي يمثل بروفةً حسنةً وواقعيةً جدًّا للقبر. يدرك أن كل ما عاش لأجله ردحًا متطاولًا من عمره لم يكن إلا غثاءً. تركه أتباعه والمهلِّلون لفنِّه وحيدًا، تخلَّوا عنه بعد أن فشا الجنون في عقله، لماذا يموت كل الموهوبين مجانين؟ أو يموتون مخذولين بعد أن يتخلى عنهم كل من عرفوهم في حياتهم؟ إنها ضريبةُ العبقرية وثمن أن تكون أعلى من الآخرين. يسجد الناس لمن هم أعلى وأفضل منهم، يعلنون ولاءهم للخيرية المطلقة، لكنهم لا يغفرون للمميَّزين والموهوبين والعلماء، دائمًا ما يترافق سردُ الناس لنهاية عظيم محزنة بلون خفيٍّ من السرور والشماتة!

يركزون على إعدام «سقراط» وعلى السم، وعلى خطبة الوداع التي ألقاها مفوَّهًا قبيل موته، وتحسُّ في وصفهم الدقيق أنهم تمنَّوا لو أنهم أنزلوا حكم الموت به بأيديهم. يخلِّدون هلاك «سنكا» الدامي المحزن، ويشكرون «فيزوف» العظيم أنه أجهز على «بلليني» العبقري في خطة بارعة صغيرة ومجانية، خطة لم تكلِّف أحدهم دانقًا، لا مشكلة في موت الألوف في المدن المنكوبة، نساء، رجال، شيوخ، أطفال بلا حول ولا قوة، زهور قُطفت قبل أن تستوي على أعوادها متفتحةً ناشرةً عطورها؛ لكن لا بأس مادام هلاكُ كل هؤلاء تضمَّن موتَ عبقريٍّ مغبوطٍ ومحسود واحد!

ولذلك، فلا بد أن أصدقاءه- قبل أعدائه- مسرورون جدًّا بالدمار الذي ساقه إلى نفسه، ما مقدار الروعة المزدوجة في أن يموت العبقري، وأن يكون هو السبب والمحرك لغضبة الكون عليه؟ أن يُجن ويفقد عقله، ويتصرف كالسفهاء! كم تلميذًا طُرد من أكاديمية مدريد الملكية، ومن ورشة «لوثان مارتينيث» الشهيرة، يتوق إلى رؤيته يتعفَّن وحيدًا، مشعث الشَّعر مجنونًا من المخاوف غير الحقيقية، والرعب من وحوشٍ وهمية لا يراها سواه، ويفضل أن يرى هذا المشهد، أكثر مما يحبُّ أن يحصلَ على جميع ممالك الأرض، التي

وعد الشرير بها «يسوع» فوق قمة الجبل، وهو يتفقد الكون بحثًا عن رغيف خبز يابس؟!

الشيطان أيضًا عبقري، ولا أحد ينكر هذا، لذلك فإنه له عددًا قياسيًّا يُحسد عليه من الكارهين والحاقدين، غير أن للمرء فخرًا بأن يكون لديه ولو شخصٌ مخلص واحد، وهو لحسن الحظ لديه ثلاثة: زوجته «جوزيفا»، و«مانويلا» العجوز، وشبح «كاتيا» الذي يسكن معه ويلازمه في كل ساعة من ساعات يومه، كلهن نساء، ولا يفهم سبب ذلك، ربما لأن النساء يُطعن دوافع عاطفتهن المهيمنة أكثر، فُيظهرن الشفقة نحو الضعاف والصغار، والذين لفَظهم الحظ من دفاتره، ومحا أسماءهم من قوائم المستفيدين من خدماته، لا يفهم سبب ذلك، لكنه رأى دائمًا في عطف الآباء والكهنة والنبلاء ومشرفي صدقات الأبرشيات، ومديري المستشفيات الخيرية، ومقدمي الخدمات لليتامى ومعلمي الأطفال المتعسرين، رأى في عيونهم كلِّهم شبح سرور خفيٍّ خبيث، إذ يتحكمون في مصير الأقل حظًّا منهم، ويتمتعون بالشعور بالتفوق الساحق عليهم، إنها رغبة التسلُّط التي وُلد بها الناس جميعهم، لكن كل جنس يُظهرها ويفشيها بشكل يتفق مع طبيعته، فبينما يعلنها الرجال مدويةً، فخورين بذكوريَّتهم، والتسامح العريض مع ما يعده التاريخ والواقع والحروب خصلةً مزروعةً فيهم بالوراثة، فإن النساء يتسلطن بالعطف، بالرعاية والحب المفرطَيْن، بالاستحواذ على كل القلوب المتاحة لهن، وفرْض سطوتهن عليها، عن طريق جعْلِ أنفسهن المصدرَ الأول والوحيد للبقاء على قيد الحياة!

وهل فاته يومًا ملاحظة اختلاط رعاية «مانويلا» الطيبة له؟ هذه الرعاية الدؤوبة المستمرة، برغبة حارَّةٍ في فرض هيمنتها عليه، وتوجيهه كيفما تحب؟!

لكنه لا يضيق بذلك، بل يحبه، فمن الجميل أن تكون مهمًّا بالنسبة لأحدهم، حتى ولو خلط حبه لك برغبةٍ في الانفراد بتقرير مصير وخريطة حياتك. من السلوى العظيمة لقلبٍ مجروح أن يجد شريكًا لا يتفهم طبيعة حزنه وحسب، ولا يضع ضمادةً باردةً على سخونة روحك، التي تحترق في صمت غير جميل فقط، بل وأيضًا يحيطك بحمايةٍ قسرية، قفصٌ بلا جدران يُدخلك فيه، ويغلق عليك- حريصًا- بقفلٍ لا تراه، ملوِّحًا في وجهك كل لحظة بمفتاح سجن لا وجود له!

إنه يحب «مانويلا»، ويتمنى أن تفرض المزيد من حمايتها المزعجة عليه، صلى مخلصًا، متغلبًا على دوافع الجحود التي ملأت قلبه منذ شهور، شكوكٌ تعذبه في كل شيء، أولها في نفسه هو، وسرعان ما استجاب الربُّ لدعائه، لم يخذله الرب أبدًا، لكنه فقط لم يعد متأكدًا مما إذا كان دعاؤه استُجيبِ

محبةً من الله، أم تخلصًا من السماء من إلحاحه المزعج، المتواصل ليلًا ونهارًا؟:

- «يا رب أظهر لي نفسك.. تمجَّد فيَّ كما تمجَّدت في كل المستضعفين على الأرض!»

لكنك تشك يا «فرانثيسكو»، تشك، وهذه حقيقة لا تتوارى خجلًا منها. أشكُّ.. ومن لم يشك؟! إن «توما» نفسه، رأى «يسوع» ماشيًا على الماء، وطعم من خبز وسمك السماء المتكاثر، ثم أقسم ألا يؤمن ما لم يضع أصبعه في ثقب المسامير!

أنت «توماوي»، ورئيسُ نسلك أقسم ألا يؤمن ما لم يرَ أثر مسامير الرومان، ويغمس أصابعه في أثر طعنة الرمح المقدَّس في جسد الربِّ القائم من الموت، ثم تكلِّمني عن إيمان رجلٍ مولود في قرن نهاية الزمان اعتمادًا على ظنك الحسن، وأقوال مَن لم يعاينوا شيئًا منذ البداية؟!

الشك طبيعةٌ بشرية علينا أن نحترمها، حتى الآباء شكُّوا وتعذبوا بشكوكهم ورؤاهم التي لا تفسير لها، ومن يلوم رجلًا لم يرَ ولم يشهد، بل سمع فقط وآمن من أذنيه أن يشكَّ ويتعذب بأوهامه؟!

كانت الليلةُ العاصفة الماضية قد تركت أثرها على بدنه المتهالك، صحا بإرهاقٍ مؤلم، وعينين لا يكاد يقوى على إبقائهما مفتوحتين، وجسدٍ يرتجف رهقًا وتعبًا، ومعدةٍ تتلوى ألمًا، لا يعرف ما إذا كانت أمعاؤه تتمرد على العصيدة الثقيلة التي تناولها بلا لهفة، خضوعا لإلحاح «مانويلا» القاسي؟ أم أن هذه المعدة البائسة غاضبةٌ لأنه في الحقيقة لم يلقمها شيئًا، غير هذه الوجبة الوحيدة طوال نهار الأمس ومسائه؟!

عاف الطعامَ ثلاثًا وعشرين ساعةً متصلة، وها هي طبيعته تتمرد على عقله الهائج:

- «أطعِمْنا ثم شُكّ!»

كاد يضحك وهو يتخيل معدته تتشاجر مع عقله، تتعارك معه مثلما كانت زوجته تعاركه، وتنتصر عليه في معارك من طرف واحد، كان خلالها يلوذ بالصمت لئلَّا يُستدرج إلى مواجهة ملحمية، لا يملك أدواتها، ولا هو قادر على الفوز بها. ابتسم ثانيةً قبل أن يشعر بفيض من الماء يُلقى فوق وجهه!

كانت تلك «مانويلا» توقظه بطريقتها، بعد أن ظنته نائمًا فاقدًا للوعي، بعد نوبة سكْرٍ وإسرافٍ في شرب الخمر المنزلي الرديء، الذي يرغمها بإلحاحه المقيت على صنعه، ولا ترضى بأن تذوقه أبدا:

- «سوف أبصق لك في وعاء خمرك اللعين هذا.. قم لتأكل إفطارك!»

اعتدل مرتاعًا وهو يمسح قطرات الماء عن وجهه ولحيته، فكر في أن ينهرها، أو يطردها حتى، لكن خواطره الانتقامية الساذجة لم تستغرق سوى لحظةٍ واحدة لتتلاشى. قرر ألا يفعل شيئًا ردًّا على نقعها له، بكل جرأة، بسَطْلِ مائها الموقر!

عرف أنه لا غنى له عنها، فاكتفى بمحو آثار عدوانها عليه، وقام من فراشه الصلب مبتلَّ الرأس والصدر، وهو يترنح، ثم استجمع نفسه، ليقول لها متسائلًا بجدية تامة:

- «ماذا قلتِ عن وعاء خمري؟!»

توقع تهديدًا مستقبليًّا، يمكن تعطيله ومنعه، لكنها فاجأته بخبرٍ ماضٍ لم يعد التصرف بشأنه ممكنًا:

- «لقد بصقتُ لك في وعاء خمرك اللعينة، وكلما جلبتَ خمرًا إلى هنا سوف أبصق لك فيه، أو أضع فيه حفنةً من تراب، ما رأيك؟! لتشرب نقيع بصاق «مانويلا» ولتفتخر بذلك!»

نفخ.. لكن في غير ضيق، منفِّسًا عن خواطرَ يجدر كتمانها أفضل، وقال مشدِّدًا على براءته من تهمة الثمالة والإسراف في الشراب:

- «إنني لم أشرب قطرةً واحدة من خمرك المنزلي يا «مانويلا»، لعنة الله عليكِ، الليلة الماضية أقصد!»

فردَّت المرأة بوجه جامد، وهي تدفع نحوه بطبق ممتلئٍ حتى حافته بعصيدة الذرة القذرة:

- «أعرف أنك لم تفعل، لذلك.. فقد جهزت لك طعام إفطار، إذا عثرتُ على أنك شربتَ يومًا فوق القَدر، فسوف أجيعك حتى تبدو عظامك من خلال ملابسك، لتتوقف عن إدمانك!»

يا إلهي.. أي جرأة تحادثه بها؟! مسح وجهه وهمَّ بإبداء اعتراضه على الوجبة المقدَّمة إليه، وعلى طريقة تقديمها، وعلى كل شيء آخر يمكنه عصيانه والتمرد عليه، لكنه عاد وتذكَّر حاجته الشديدة إليها، وشدة إخلاصها وعنايتها المفرطة به، فمدَّ يده وتناول منها الطبق المليء، ورفع ملعقةً يسيل منها عسل الشوفان الرقيق الكريه، ودفعها إلى جوفه دون تذوقٍ أو مضغ، ثم كرر فعلته حتى أتى على محتويات الطبق فأعاده إليها دون أن يكون قد عرف كيف يبدو مذاقُ عصيدة هذا الصباح فعلًا، فتناولته منه ملقيةً إليه بابتسامةٍ رضيَّة، كنوع من المكافأة المجانية، التي تمنحها الأمهات لأطفالهم العصاة

على الترويض دون أن يكلَفن أنفسهن شيئًا في الواقع، واستدارت مغادرةً، لكنها هتفت بحزم، بينما عيناه تخترقان ظهرها النحيل المتخشب:

- «سوف أنظف هذا المزود القذر ظهرًا، ما لم أعثر على خنزير مناسب ليرعى هنا!»

ذهبتْ وخلَّفته وراءها لوحدته، لكنه كان على علم بأنها غالبًا سوف ترجع إليه، بقطعة من الفاكهة، او بقدح عصير طازج، صنعته لتوِّها، أو حتى لمجرد أن تتلصَّص على نشاطه، وتفرض وصايتها الكريهة على لحظات خلوته بنفسه، فأسرع إلى باب القبو يغلقه، مستذكرًا كيف قطعت «جوديث» رأس «إليفانا» الليلة الماضية، ثم أبقت الخنجر معلقًا فوق رأسه هو، «فرانثيسكو» البائس، طيلة ساعات الليل الطويلة المرعبة، مهددةً إياه في كابوس مخيف، نادرًا ما عانى مثله، منذ جاء إلى منزلٍ صمَّمه المشئوم هذا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في طراوة المساء المبكر، حيث زالت كل عوامل الهلع من سوء مزاج، وتعسُّر الطبيعة في ولادة ظواهرها الرتيبة، كان منكبًّا على أوراقه يلطخ المسوَّدات القبيحة بألوان وخطوط لا معنى لها، ولا تعطي أي لمحةٍ عن شيء له شكلٌ وأبعاد يمكن تلمُّسها وقياسها، ورؤية استدارته ونعومته كاملتين تامتين، وبرغم ذلك كانت الخطوط العشوائية تصنع غيمةً غريبة الشكل، قبحُها لم يقلل من فتنتها أبدًا، وتداخُلُ معالمها لم يجعلها ميتةً أو خاويةً من الرموز المقلقة، ابتسم «فرانثيسكو» بفمه، الذي امتلأ بأسنانٍ نخرةٍ مسودة، لم تعد تلقى عناية- ولو في حدها الأدنى- من صاحبها المشغول بعاصفة أفكاره المضطربة القلقة.

كان عاكفًا في محرابه الخاوي يسفح الدموع أمام آلهة الفن الشحيحة القاسية، ويقدِّم قرابينه الكثيرة، التي هو على يقين مع أنها لن تجد قبولًا لدى الأرباب، أكثر من المثوبة التي قوبل بها قربانُ «قابيل» البخيل الرديء، للأسف فإنه لا يملك عجلًا مسمنًا، وإلا لحرقه قربانًا أمام شيطانة الفن؛ لتهبَه روحًا جديدةً ومقدرةً لا يمكن تعطيلها من لدُنها، لكنه تذكر أنه حتى لو حاز عجلًا هذا شأنه، فإنه لن ينتفع به قربانًا لآلهته الساخطة، لأنه على الأغلب سوف ينتهي به الحال، العجل لا «فرانثيسكو»، في وعاء الطبخ الخاص ب»مانويلا»، بلحمه وعظمه وأمعائه وسقط متاعه، وسيكون حساؤه الدسم مغتسلًا ترمي فيه المرأة العجوز بقرينها المزعج وتغسله، «فرانثيسكو» لا العجل، ظاهرًا لباطن، بوجباتها المتقنة العديدة. ابتسم حينما تذكر أن المرأة العجوز قد أضحت مسيطرةً عليه، إلى الحد الذي تجرأت فيه على اقتحام خلواته وخواطر نفسه الصامتة، والتسلل حتى إلى أفكار تدور في رأسه، وهو منعزلٌ عنها، يفصل بينهما طابقان من الحجارة المصمتة القاسية!

تنهَّد محترقًا بصهد لهيبٍ يأكل أحشاءه، لهيب لا يعرفه إلا كل عبقري فنان يجد نفسه متعسرًا في ولادة شاقة، كأمٍّ سيئة الحظ، لا يستطيع أن يتراجع منكبًّا على عقبيه ويحتفظ بجنينه داخله إلى الأبد، ولا يمكنه جسده المنهك المريض مِن دفعه إلى الخارج، إلا بكل نفسٍ ذائقة الموت على أقساط موجعة، وربما بالميتة الوحيدة العظمى والأخيرة نفسها، استوى جالسًا محدقًا في فراغ عقله الذي يملأ صفحات دفاتره، من المدهش أن الفراغ دائمًا ما يحتل مساحةً أكبر من أي موجود وملموس، هل جرب أحدٌ غيره الاستلقاء في الظلام، وإرهاف أذنيه في الصمت المطبق. إن ضجيج الصمت لمهولٌ مرعب أكثر من أي صيحةٍ أو صخبٍ سمعه في حياته، كل شيء يكون غالبًا أقربَ إلى نقيضه أكثر مما يشبهه تمامًا؛ لذلك فإن الرجل، كلما شاب وتمادى في كبَره، قارب صفات النساء أكثر، ولا أحدَ يشبه الرجال أكثرُ من امرأة عجوز يئست من مزايا جنسها القليلة، التي سرعان ما تتلاشى ويتراجع الكون عنها عن عطيتها. المؤسف أن مثله لا يحظَون بمميزات الرجال ولا مزايا النساء، إنه متروك في المنطقة الوسطى، واقف على الحافة، لا باب واحد يُفتح أمامه، ولا يدعه أحدٌ ينهار في نوبةٍ هستيرية نسائية طالبًا النجدة والمساعدة، ولا يُسمح له بممارسة الرجولة قوةً واقتحامًا وفرصًا للنفس بكل الطرق، هذه هي لعنة الفنان، إنه يحس بالجميع ولا أحد يحس به، يتفهم مشاعر كافة الناس ويستطيع التعبير عنها، بينما لا أحد يتفهم مشاعره أو يقدِّرها، لأنهم ببساطة يعدونه مجنونًا!

لكن من يدري، ربما كانوا محقِّين في النهاية، فمن الصعب أن يجزم أن ما يسمعه كل ليلة، وهو مستلقٍ في ظلام شامل نهائي، يسمعه فعلًا، وأن كل خيالاته وأحلامه ليست إلا دليلًا حيًّا على خباله وفقدانه لعقله شيئًا فشيئًا، لكن الأمر يفتنه رغم كل ذلك، تُرى ماذا يرى المجانين؟ ماذا يعرفون؟ وما الذي يكتشفونه، حين يُرفع الحجاب عن أبصارهم وأسماعهم خلف هذا العالم؟!

لا بد أن الأمر مُغرٍ حقًّا، وإنك لتتوق إلى تجربته. مرة أخرى تذكر قربان «قابيل» الهزيل، هل عليَّ أن أسفك دمًا على المذبح لكي تصبح لعنتي كاملة، إما الرِّدةُ التامة إلى العقل والحياة، وتحمل مشاقِّ البقاء في البلاط، الحافل بالخيانة والكذب والغدر والشهوات الدنيئة، وإما راحةُ الجنون الشامل، حيث لا لوم ولا توقع لأى نجاة. وحده المشهود له بالجنون من يستطيع مواجهة الناس بحقيقتهم الشائنة، دون أن يخشى عقابًا أو لومًا، لكنه يتوق إلى أن يرجم الملك بحجر دون أن يشعر أحدٌ بالدهشة، أو يتخذون الاحتياطات لعقابه، وإنزال الخسف به، إنه مجنون مسكين.. هذا يكفيه فخرًا وحلًّا نهائيًّا لكل مشاكله المستعصية!

هل الربُّ موجود حقًّا، وهل يسمع طلبات الناس حتى دون أن يقدموا قربانًا، أو صلاةً توافَق عليها الآباء، نصًّا وتلاوةً في كتب صلواتهم؟!

يبدو ذلك، فما كان «المسيح» إلا رجلًا بسيطًا في نهاية الأمر، شغله تفكيره المحموم للحظة، فاحتاج إلى وقت إضافي لكي يميز أنه نُودي باسمه، وأن ثمْة صوتًا يُلحف ويلحُّ في نداداته وطلبه للحاق به!

يلحق بمن وأين؟!

نهض فجأةً تاركًا الأوراق والفرُش المغموسةَ بحبر وألوان جفَّت معظمها، سامحةً لشعيراتها الرقيقة بأن تتحجَّر وتقف حادةً صلبةً، كأشواك تُجلِّل إكليلَ رأسٍ مصلوب، خلَّاها كلها تسقط من حجره، وتهوي محدثةً صوتًا مدويًا على الأرض الحجرية العارية، ثم وقف مرهفًا السمع، كان ذلك عندما سمع، وبكل تأكيد هذه المرة، صوتًا رقيقًا ناعمًا يناديه برخاوةٍ وإغراء، كان صوتًا مضمَّخًا بالعطر، صوتٌ ليِّن ومغرٍ، صوتُ امرأة بكل تأكيد، امرأة جميلة وفاتنة، لكن مَن هي المرأة التي تحمل هذه الصفات، وتسللت إلى منزله دون أن يحس بها؟ من المستحيل أن يكون الصوت لـ«مانويلا»، فإذا تغاضينا عن الأصول، وأسلكنا «مانويلا» في عداد النساء ابتداءً؛ فإنه من المستحيل أن تستطيع العجوز أن ترقق طبقة صوتها، وتمنحها كل هذا الإغراء والسحر!

لا.. الصوت ليس لـ«مانويلا» بكل تأكيد، فإذًا لمن يكون؟!

بدأ يمشي في اتجاه النداء الرقيق، فكاد يُكبُّ على وجهه ويسقط أرضًا، لقد جلس وقتًا أطول مما ينبغي، وها هي عضلات فخذه البائس قد أصابها التقلص والإعياء، وقريبًا يلتصق لوحا كتفيه ببعضهما بسبب سلوكيات حياته الخاطئة بالكامل، أو يصير أحدبَ، وبدلًا من أن يُنعَت بالجنون ويستريح فسوف يقذفه الأولاد بالحجارة وقشور الخضراوات، ليس لأنه مختلٌّ ملتاثٌ؛ بل لأنه أحدبُ مشوَّهٌ وقميءٌ ومنفِّر!

ضحك وهو يتخيل هذه النهاية لنفسه، كانت كلُّ فكرةٍ توقِعه في نظرية جديدة، أكثر إرعابًا من التي قبلها، عن الطريقة التي سينتهي بها، تجعله يغرق في الضحك بشكل تلقائيٍّ لا يمكنه السيطرة عليه، لكنَّ نوبة ضحكه الآنيَّة سرعان ما بُترت وقوطعت، إذ عاد الصوت الملحُّ يناديه بإصرار. تخلى «فرانثيسكو» أخيرًا عن حذره، ومشى خطواتٍ واسعةً تجاه الحائط الشرقي لقبو منزله، حيث يوجد جدارٌ كامل خالٍ من الدهانات والرسوم، ومناظر ريف موجاراز الفاتنة وكل شيء آخر، جدارٌ عارٍ قبيح، لكنَّ جزءًا طفيفًا منه بات مشغولًا الآن. اقتحمه نفورٌ محبَّب في المنظرِ العام، وتشوُّهٌ لطيف مغرٍ، تشوهٌ جميلٌ كأصبع سادس في كفِّ حسناء، فاحتُلَّت مساحةٌ ضئيلة منه بجسدٍ أهيفَ يسند ظهره إليه، بينما وجهه في اتجاه الجدار الغربي، مما جعل الجسم

الدخيل في مواجهة مباشرة مع الرجل المدهوش، الذي يقترب حثيثًا وهو يحدُّ النظر غير مصدِّقٍ لما يراه، كان «فرانثيسكو» في حالة ذهولٍ كامل، فحتى لو أن ثورًا غاضبًا أفلت من حلقة الشبان المغامرين، المضروبة حوله في ساحة سان فيرمين، وركض نحوه مباشرةً، ما أحسَّ الرجل بكل ذلك الكمِّ من الذهول والفشل في اتخاذ أي ردَّةِ فعل، الذي يشعر به اللحظة، بلصْق الجدار كانت هناك امرأةٌ، لم يرَ في حياته مَن هي مثلها، لا ولا حتى «كاتيا» الفاتنة نفسها، تلك كانت من عالم آخر، نوعٌ جديد من النساء، لم يكتشفه أحدٌ من قبل، وغالبًا لا توجد من صنفه إلا واحدة، هذه التي تقف في قبو منزل الصمان الضيق، وتتطلع مباشرةً صوب الفنان المهووس، الذي يبادلها النظراتِ من الناحية الأخرى. ولحسن الحظ كانت المرأة هادئةً وساكنةً، يبدو أنه ليس لديها شيءٌ تقلق بشأنه، فلم تتخذ أيَّ ردٍّ فعل، حينما لاحظت أن مضيفها، الذي دخلت إلى حرمه دون استئذان، يقترب نحوها، بل حتى وقفتها المنثنية لِصْق الجدار، والتي جعلت كتفها الأيمن يلاصق الملاط الصلب القاسي، الذي أُلقي فوق تلك الأحجار العارية منذ نصف قرنٍ أو يزيد، بينما كتفها الأيمن يبعد عنه مقدار شبرٍ أو أقلَّ قليلًا، هادئةً ساكنةً واثقةً بنفسها، ترمق دخيلها دون اهتمامٍ أو ريبة، منتظرةً حتى يصبح في موقع يمكِّنها من توجيه الكلمات نحو وجهه مباشرةً، وعندما حقق نصره الصغير أخيرًا، ووصل بقربها، فتحت فمها الفاتن، انفرجت شفتاها الدقيقتان، غير المطليَّتين بأي لون، وهتفت مسترجيةً أن يكون المستمع يصيخ السمع جيدًا؛ ليتسنَّى له أن يسمعها دون أن تكرر ما تقول، أو تُضطر لرفع طبقة صوتها الهامس فوق ما تحب، وتقول بنعومة موسيقية:

- «ليوكاديا، أدعوني ليوكاديا».

انفرجت شفتا «فرانثيسكو»، وارتعشت شعيرات لحيته وشاربه المهوشة، وهو يردد الاسمَ الغريب على مسامعه بما يشبه الهمس، متذوقًا حروفه بلذةٍ لم يعرفها من قبل، الهمس في حضرة الجمال واجبٌ ديني مقدَّس، هل يجرؤ قسٌّ أو كاهنٌ على أن يوجه الصلاة إلى أم الربِّ وهو يصرخ، كما كان كهنة الخيمة يصرخون في وجه «يهوا» القاسي الفظ، أو لوجهه؟!

- «ليوكاديا!»

أعاد متذوقًا حروف الاسم، كأنها مقبِّلاتٌ شهية تُقدَّم إليه، وحدها تكفي الجائعين، فلا يطمع مَن يحصل عليها في أن يليَها طبقٌ رئيسي، لأنه سيكون قد شبع وامتلأ!

كرر الاسمَ كنداء متوسل، فرفعت أصبعًا سبابةً نحيلًا وطويلًا، ووضعته قرب شفتيه، ولاحظ لحسن الحظ أنَّ لها أصبعًا سادسًا فعلًا، يا للمصادفة السعيدة،

لامست شفتيه الجافّتين برقّة، ثم كررت اسمها لمرة وحيدة، قبل أن تقول بنفس النبرة الرقيقة المشتهاة:

- «هذا هو اسمي، لا زوج ولا حبيب لي، لا رجل أعرفه أو يعرفني، ولا أب ولا أم، أنا فقط موجودة مثل زهور الجبل الوحيدة، من زرعها ومن سقاها، ومن يستحق أن يقطفها؟!»

لم تكن تسأله في الحقيقة، بل كانت تُعطي تعليمات، عرف ذلك فيما بعد، ثم رآها تستدير ليصير وجهها مقابلًا للحائط، ثم راحت تتلاشى ببطء وتبتعد، كانت تنفذ داخل الجدار وتخترقه، أمام أنظار «فرانثيسكو» المذعورة، تختفي داخل جدارٍ مصمت قاسٍ، مدَّ يديه ملهوفًا يائسًا ليوقفها، لكنها كانت قد أفَلَت تقريبًا، في نفس اللحظة سمع صوتها يترقرق، كنبع ماءٍ عذب يسيل من رأس جبل، وهو يردد آمرًا:

- «إن عليك أن تفعل.. إن عليك أن تفعل!»

صرخ «فرانثيسكو» بيأس وقنوط:

- «لا أفهم لا أفهم!»

لكن الصوت الذي تلاشت صاحبته تمامًا الآن تقريبا، راح يردد نفس الأمر غير المشمول بتفسير:

- «إن عليك أن تفعل.. عليك أن تفعل!»

أخيرًا اختفت «ليوكاديا» تمامًا، غير مخلِّفةٍ في المحيط، الذي ظهرت فيه، سوى صدى صوتٍ خفيف، راح يتردد بقية الليلة كأصوات أمواجٍ بعيدة، تضرب الشاطئ الآخر، ولا يصل منها إلى حيث يقف البحَّار الوحيد في غمرة مأساته، إلا صدى ارتطامها المثير للتأمل، مؤكدًا على نفس الطلب الغريب، ورجلًا يائسًا قد قوطعت لحظته، فشمله فتورٌ وتراخٍ في أعضائه، بعد سيالٍ عاطفي كاد يلقيه أرضًا، ويقضي عليه، يضرب الجدار بمجمع يده، عسي أن تفلح قبضته الواهنة في إرغام الصخور، التي لا تبالي، على أن تفرج عن أسيرتها الحسناء، عن «ليوكاديا»، التي يحتجزها الحائط بداخله، ويحرم عاشقها الملهوف من التمتع بصحبتها مرةً أخرى، وإلى الأبد، لكنَّ القبضةَ الكليلة لم تستطع كسر قسوة الجدار، أو إرغامه على الإفصاح عن مكنونات مخابئه السرِّية. لم يكن ينوي فعلَ شيءٍ من هذا على أية حال، لكن برغم ذلك فإن للأصابع الخائرة المرتجفة بعضَ النفع. لا تخلو الأشياء الحية من نفعٍ أبدًا، وفي العادة تحقق أعلى فائدة تُجنى منها وهي ميتة، غير أن الرجل لم يمت بعد؛ لذلك فهو يدرُّ فائدةً متوسطة ولا يحقق سوى خسائرَ طفيفةٍ يمكن تحمُّلها، ديونه لنفسه فقط، وهكذا مسترجعًا أمجادها الخالدة تماسك وشدَّد عزم

أصابعه، كفَّت الرعشة عن مهاجمته، ولم يعد للخواطر السيئة من رجفة تسري في أوصاله، هبَّ واقفًا على قدميه، مدفوعًا برغبةٍ لا تقاوَم في علاج وهن ذاكرته، وخلل ذاكرة العالم المزمن. لا بد وأن يسجل الرؤيا الخارقة، التي حدثت في قبو منزله الخاص، قبل أن تتلاشى وتضيع من دفتر الزمان كله، وتُمحى محوًا غليظًا وظالمًا من سجَّلات هذا العالم، المليئة بالمغالطات، والذكريات الكاذبة، والشهادات الزائفة، وفي تباشير الصباح التالي كان الجدار العاري مغطًّى بستار من ألوان هادئة، وموثَّقًا عليه ذكرى امرأةٍ فاتنة، ذكرى حية نابضة لا تنتمي إلى أي جنس أو نوع، ولا يوجد من صنفها إلا واحدةٌ لا غير، تلاشت في العدم، لكن ذكراها ستبقى حيةً إلى الأبد، مسجَّلةً بأنامل فنانة، لم يسلُب منها الجنونُ ولا اليأس موهبتها الربانية الرشيدة، ومحتلةً- عن استحقاق- جدارًا كاملًا من منزل القنوط المعزول، السجن الذي وضع صاحبه نفسه فيه، ثم عكف على تجميل قيوده وتزيين محبسه بألوانٍ قاتمة ومناظرَ مأساوية، تتناقض تمامًا مع ألوان ومناظر لوحة سعادته الوحيدة، هنا لا مكان للألوان الحزينة، أو إثارة شجون الوجود المستعصية. هنا «ليوكاديا» مرتكزةٌ بهدوء على الجدار، تقف بثبات ملقيةً بذراعها مثنيَّةً فوق ركام قبر، لا يعكر صفوَ ملامحها الدقيقة شيءٌ، لا حزنَ ولا انفعال، إنها أكبر من الحزن والانفعال والغضب، وغالبًا وُجدت قبل كل تلك العواطف الخرقاء السخيفة، أو لا يوجد في عالمها أي منها، برغم أن الموت موجودٌ هناك، الموت موجود في كل مكان، إنه الملك الآسر، لكن «ليوكاديا» لا تسمح لنفسها بأن تكون مأسورة، لذلك تقف بلا ذلةٍ مشيحةً بوجهها، غير ملقيةٍ بالًا لا إلى القبر ولا إلى الراقد فيه، «فرانثيسكو» آخر مَن يعلم لمن هذا القبر، ولا أين موقعه من الوجود. ثمة بقعةٌ في الكون مخصصةٌ للأشياء التي لا مكان لها، إليها يأوي الجنُّ والعفاريت، ويلجأ لها المشعوذون والساحرات والغيلان، ومنها تخرج الأشباح والمسخوطون ليهاجموا الناس ليلًا، وفيها عرشٌ مهولٌ يتشاركه إبليس مع «ليليث» الغاوية المتمردة، أو لعلَّه يتقاسمه مع ملاكٍ أو إلهٍ مهجور، تخلَّى الناس عن عبادته وتركوه وحيدًا، مثلما ترك الجميع «فرانثيسكو» وحيدًا في أسره الشخصي، قيودُه التي صنعها لنفسه وبنفسه، لا يؤنس وحشته سوى أوهامه، التي صنعها بنفسه أيضًا، وكلُّ وهمٍ فيها يأكل جزءًا من جسده وروحه، حتى إذا لفظه حيًّا على ورقة أو جدار أحسَّ كأن عضوًا من جسده تلاشى واختفى. كل رسمة جديدة هنا يقابلها جزءٌ يسقط من روحه، إلا أنه لا يعلم بعد أي وهمٍ لا يزال يؤرقه، حبيسًا يضطرب داخله، متصلًا بقلبه، فإذا لفَظَه حيًّا سقط هو ميتًا!

لا يهمه ذلك، فمن الخير له أن يموت وهو يعمل، بدلًا من أن يهلك بطيئًا بالبطالة والغفلة والعجز والكسل، وضع رتوشًا أخيرةً وجمَّل مَلاكه، وابتدع مانتيلا فوق رأسها، حرص على أن يعطيها ملمحًا بشريًّا، لا بد أن تشبه البشر،

حتى ولو كانت لا تنتمي إليهم فعليًّا، لا بد أن يكون لمخاوفنا اسم، ولأشباح خيالنا شكل بشري، وإلا فكيف نستطيع أن نتغلب عليها؟!

كانت المرأة على الجدار بمعشار جمال «ليوكاديا» الحقيقية، التي جاءت من خلال الحائط وداخله اختفت، وهذا هو كل ما وصل إليه جهد الفنان المغموس بعَجَلته للإيجاد والخَلق من عدم، ليس بالإمكان صنعُ شمسٍ حقيقية على الورق، بل نكتفي بقرصٍ أصفر يشعُّ ضياءً، لم يحس إنسانٌ بحرارة قرص أصفر مضيء، أو يُغمر بضيائه، لأنه مجرد وهم، و»ليوكاديا» المرسومة هي جزء من وهم، وهذا جلُّ ما استطاعه الرجل المنهك بالمحاولات الخائبة، لقد بذل جهده، أذلَّ جسده وقسا عليه ساعاتٍ متواصلة، حتى إذا انتهى مرعوبًا من أن تتلاشى الذكرى بأسرع مما ظهرت. تمرَّد جسده واحتجَّ على خشونته وقسوته البالغة في استغلاله. أخيرًا ابتعد محمومًا، ساخن الأنفاس، وهو يرتجف، وأصابعه ترتعش وتتصلَّب على المنظر، متطلعًا من مبعدة، بأنفاسٍ حارَّة متهدِّجة، لم يعد يسيطر على نفسه، فأحس دوارًا مخيفًا وفتورًا ووهنًا شديدًا، ثم تسلل شيءٌ يزحف منتقلًا من فم بلعومه إلى معدته، ومن ثم نحو أمعائه، وراح يستولي على حصونه غير المسوَّرة واحدًا وراء الآخر. أخيرًا استسلم الرجل، ولم يعد به طاقةٌ على مغالبة الهجوم الكاسح، فاستوفى نظرته الشاملة إلى الجدار، المغطى بشبح «ليوكاديا»، الممتزج بالأبيض والأسود، ثم غلبه دوارُه ووهنُه، فسقط على الأرض، ولبث بقية ليلته يرتجف ويهذي، لا هو نائم ولا مستيقظ واعٍ، وظل راقدًا، حتى دون أن يبذل جهدًا في محاولة النهوض على قدميه، حتى وجدته «مانويلا» على حاله تلك صباح اليوم التالي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(8)

مبعوث الشيطان الأرجواني!

صباح الأحد التالي افتقدته «مانويلا»، بحثت عنه في غرفته في الطابق الأول فلم تجد له أثرًا، حسبته راوغها بالهروب إلى قبوه العفن، فرارًا مما يعرف أنها ستطلب منه فعله. كانت علاقته بالرب قد أصبحت قلقةً غيرَ مستقرة، تشوَّشت عواطفه نحو نفسه، فكان من الطبيعي أن ترتبك علائقُه مع كافة القوى الأخرى في الكون. إننا نرى العالم من خلال أنفسنا، ونظرتُنا إليها تنعكس على نظرتنا إليه، فإذا ما شاهدنا العالم من خلال مرآة أنفسنا المشوَّهة الممزَّقة فمن المستحيل أن نراه مستويًا صحيحًا أبدًا، ولهذا كانت المرأة العجوز بفطرتها القرويَّة النقيَّة، تريد أن تُقوِّم نظرة سيدها إلى نفسه، أن تضعه على طريق الاحترام لذاته، أن تعيده رجلًا لله؛ حتى لا تتركه فريسةً للشيطان يستبدُّ به ويتلاعب بعقله كيفما يشاء.

كان «فرانثيسكو» قد انقطع عن التردد على الكنيسة منذ بداية أزمته العاصفة، تقوقع على نفسه، ورفض أيَّ محاولاتٍ للتواصل مع غيره، لا من الناس ولا مع القوى التي تتحكم في الناس، صدَّرها هي في تعامله من مبعدةٍ مع العالم، التعاملات التي لم يكن منها بدٌّ، ثم استوفى رغبته في العزلة بقطع الوتين بينه وبين السماء بالكلية، إنه لم يفقد إيمانه، بل- فقط- افتقده، بحث عنه طويلًا بين مرايا البلاطِ اللامعة وقبابِ الكنائس العالية، والجدرانِ المزركشة بالرسوم، والوسائدِ المنمنمة الدقيقة، ومساحاتِ القصور وصحونِ الكنائس الشاسعة الامتداد، المغطَّاةِ بلمعان يؤذي العينين، ثم هام على وجهه في الشوارع المزدحمة الصاخبة، ومنها انحدر إلى شوارع مخمصة، تتكدَّس فيها الماشية والآدميُّون، وبيوتٌ فقيرة، وجيرةٌ معدمة، وراقب عملية اضمحلال المدينة تحت ضربات السياسة والإخفاقات العسكرية الإسبانية الموجعة، سجَّل كلَّ هذا في ذاكرته، ولجأ إليها لتحصِّنه من السقوط، لكن كل هذا كان بغير جدوى، خاب أمله فارتدَّ على نفسه يلومها ويعزلها بقسوة عما حولها. كنيسة «سان أنطونيو ديلا فلوريدا» تقع على مرمى حجر منهم، لكنه لم يزرها قط منذ بدء أزمته، رغم أن جدرانها حافلةٌ بنتاج قريحته الفنية المتوقدة، ومكنونةٌ داخلها صورُ معجزات القديس «أنطوني»، محزونًا وملُومًا من قبل السماء لصنع معجزة، وهذا الصباح وضعت «مانويلا» شالها على كتفيها، وغطت رأسها بإيشاربها الريفي المزيَّن برسوم الديكة وتجلِّيات العذراء المحلِّقة في السماء، وقررت أن تأتي لتسوق سيدها المتمرد، الذي تعصف به أزمةٌ لا تعرف لها سببًا محددًا، إلى بيعةٍ صغيرة، مختبئةٍ وسط الشوارع الضيقة، التي تفوح بروائح العطن القذرة، وتمتلئ بأكوام التبن

المتعفنة، وبقايا الفاكهة ومنتجات الريف، التي بيعت في زحام السوق الشعبي، صبيحة الجمعة المنصرمة، ستسوقه قسرًا، بعد أن تجرِّب الاستدراج بلسانها المعسول، وبطريقتها الخاصة، التي كانت فيها تتناوله وتترفَّق به، وتضعه وكأنه طفلٌ رضيع. في الحقيقة فإن النساء وحدهن مَن يكبُرْن، أما الرجال فينكصون إلى الطفولة كلما تقدموا في السن، يصغرون كلما كبروا، وفي كل مرحلة من حياتهم يحتاجون أمًّا من نوع ما، المرضعة أم، والمربية أم، والرفيقة أم، والعشيقة أم، والزوجة أم، والممرضة التي ترعاه في شيخوخته، يتخذها أمًّا له بسرور، حتى وإن كان عمرُه يفوق عمرَها بمراحل، لكن مأساة «فرانثيسكو» العجوز أنه لم يجد أمَّه في واحدة من كل هؤلاء، لم يعثر على أمٍّ بديلة طوال مراحل حياته المتعاقبة، ولأنه فنان فقد كان نكوصه ألعنَ من ردَّة الرجال الآخرين، الذين يعيشون الواقع وبه يموتون دون شدٍّ وجذب مع الأقدار، لذلك وقع على عاتق فتاة سانتياجو دي كومبوستيلا البائسة وحدها أن تكون له أجمعها في لحظة واحدة، مربيةً ورفيقةً وعشيقةً وزوجةً وممرضةً، وحتى مرضعةً، فإنها تدسُّ الطعام بين شفتيه قسرًا، كأمٍّ تُلقم طفلها الغذاء رغمًا عنه، ليكبر ويعيش. ما الذي بقي إذًا؟!

أن تحسن «مانويلا» جمعها بين كل هذه الأدوار، التي تؤدي بعضها حرفيًّا، وبعضها الآخر بشكل رمزي ومسرحي، كدورٍ بسيط تلعبه في مسرحية قديسين تعرضها كنيسةٌ فقيرة منزويةٌ لا يزورها أحدٌ، عرضٌ مفلس لا يحضره سوى أهلية الممثلين، ليصفِّقوا لهم دون اقتناعٍ بما يؤدون من تمثيلٍ رخيصٍ مكشوف. مبادلةٌ قروية طيبة وعادلة للغاية، وسيدها أيضًا كان في أشد الحاجة لأن ينغمس في جوٍّ ريفي خالٍ من الشوائب، حتى رزايا القرويين وخطاياهم وفضائحهم تكون طيبةً، بلا شرٍّ مستكينٍ خلفها، مجرد أخطاء يقترفونها مثلما تطحن الدجاجاتُ الصيَّاحةُ عظامَ بعضها بعضًا في فناء البيت، أو ينقر الديك المسيطرُ الصيصان، التي لا تكف عن الصراخ، إذا ما وجد نفسه منفردًا بها، ويطاردها بجلافةٍ وهو يهز معرفته الزاهيةَ متباهيًا. خطايا بلا شرٍّ حقيقي أو نيَّاتٍ سيئة مبيَّتةٍ، هنَّاتٌ يسهل على الطبيعة غفرانها، أما اللهُ فهو لا يأبه لها، لأن الله أكبر من خطايا البسطاء ومن أخطاء السذَّج الطيبين، وبرغم إيمانها كانت «مانويلا» لا تصدق بحرفيَّة تخويفات بحيرة الكبريت وصرير الأسنان، كانت ترى تلك الصورة رمزًا لعقوبةٍ أبدية يُترك الإنسان فيها وحيدًا؛ ليعاين أخطاءه ويجترَّ ذكرى معاصيه، دون أن يُخفَّف عنه شيءٌ من وقعها المؤلم. بطبيعتها، ورغم أمِّيتها، كانت المرأة تعرف أن عقوبة الضمير ووخز النفس اللوامة يكونان أشدَّ حرًّا من حرق النار وكيِّ السياط فوق اللحم الممزق، وهي كانت تريد مصيرًا مختلفًا تمامًا لسيدها، لا تريده أن يُترك لنفسه، تودُّ أن تنتزعه من شرنقته التي نسجها حول نفسه، وتقذفه إلى الخارج، إلى النور والضوء الساطع والهواء اللافح وذباب الحواري الشرس،

تريده أن يواجه مخاوفه لا أن يهرب منها، حتى تتفاقم ويستفحل شرُّها. وضعت مع نفسها خطةً، وبدأت هذا الصباح تنفيذها، ستحمله على مرافقتها إلى الكنيسة الصغيرة، ثم ستُرجعه إلى المنزل، وفي المساء ستقوده إلى فخٍّ محكم أعدَّته له، لكن أين تجده هذا الرجل غريب الأطوار؟!

لقد خلَّفته ليلة أمس في غرفته، وعدها ألا يجول في البيت يصنع شرًّا، وأن يبقى في سريره حتى تُحضر له طبق العصيدة، ورؤوس الفجل المغموسة في الخل، التي يحبُّ تناولها بين فينةٍ وأخري، لكن ها هو قد خالف كلمته، وهل للفنانين عهد؟ وراح يجول في المنزل، وربما حوله، وستحتاج ساعةً من الزمان، والكثير من التفكير والتلصص وإعمال العقل والتحمل الذي لا يُطاق، للعثور عليه في مكان ما حيًّا يرزق!

ضربها الخاطر الأخير في قلبها، فوجدت نفسها تجري فوق السلم، حتى كادت تكبُّ على وجهها، يا إلهي لو أوقع بنفسه شرًّا أو ضررًا، إنها تعرف أن بعض هؤلاء الفلاسفة المخابيل قد مات منتحرًا، أو حكَم عليه صاحبُ سلطان ما بالإعدام. حسنًا.. إنها لا تعترض إطلاقًا على إعدام الفلاسفة، إذا كانوا كلهم يشبهون سيدها في خباله واختلاط عقله، شريطة ألا يكون أحدُهم هو ربُّ بيتها الطيب بنفسه!

هذا أكثر مما تطيق، نخسها وتدٌ بين ضلوعها، وبذلت أقصى جهدها، وهي تتفقد الطابق السفلي، لم تترك الملحقات والمرافق، ثم بحثت في القبو، كان المنظر شنيعًا بأسفل، إذ تغطَّت الجدران برسوم ومناظر مفزعة، أفرغ سيدُها كوابيسه وأفكاره السوداء على جدران منزلها، منزلها هي، فالخادم يملك البيت أكثر من السيد دائمًا:

- «هل سيكون عليَّ تنظيفُ كل هذا؟!»

تفكيرٌ عملي محض، لكنه لم يحيِّد ولم يُبعد تفكيرها العاطفي، إنها تريده أن يكون بخير، ولو اضطُرَّت لغسل حوائط كنيسة سان مانويل وسان بينيتو، التي زارتها مبهورةً من روعة زخارفها في مراهقتها البعيدة، ولمرةٍ وحيدة لم تتكرر أبدًا، كلها، وخربشة القذارة من عليها بأظافرها، أخيرًا وجدت ملاذها الأخير للعثور عليه:

- «سيدي سيدي.. أين أنت؟!»

صرخت متسائلةً، وهي تدور بعينيها محاولةً إيجاده، ربما كان مختبئًا في أحد الأركان، أو منزويًا في جانبٍ ما يخطط أو يرسم، أو يشدُّ جذور شعره بغلٍّ مفكرًا، فلتكن تلك حالته، المهم أن تجده، تناهت إليها ضجةٌ غريبة من الفناء، فأحكمت الشالَ فوق كتفيها، بعد أن أصبح طرفه الأيمن الذي انحسر عن

ذراعها، يلامس الأرض تقريبًا، وهُرعت تجري مستطلعةً الأمر، في الفناء، الذي كان ضلعه الجنوبي مكوَّنًا من كومة من الأحجار، التي صُفَّت بغير عنايةٍ، وتلطَّخت بخربشاتٍ ورموزٍ قبيحة وغريبة بالفحم، بينما اكتست الأضلاعُ الثلاث الأخرى من السور بلونٍ أبيضَ نظيف وجديد تمامًا. كان طلاءً طازجًا وُضع لتوِّه، وكانت ثمة براميلُ خشبيةٌ متوسطة ملطَّخة بوحلٍ جاف، وعصِيٌّ ملقاة هنا وهناك، وقد لُفَّت رؤوسها بخِرَق من الخيش، وكلها مبللةٌ بطلاء أبيض لم يجفَّ تمامًا بعد، وهناك بالقرب من الضلع الغربي، وقف سيدها في سروالٍ فضفاض متسع عليه عند الخصر، فأحكمه بربطه بقطعة مرتجلة من القماش انتزعها من أحد مريولات عمله غير المستعملة، وقميص متهدِّل الكُمَّين، وقد برزت أوردةُ رقبته في مطلع الشمس كأنها أشرعةُ سفينةٍ تمخُر أعالي البحر، كان يعمل بنشاط وينهج، تضرب يداه الملطختان وجهَ السور العتيق، فتُحيل قذارته واسوداد وجهه إلى صحيفةٍ بيضاءَ مستويةٍ وناعمة، أزال الرسومَ الشائنة والذكرياتِ السيئة، التي خلَّفها رجلٌ كان مثله مأزومًا، أصمَّ ومجنونًا، ومنفلتًا من كراهية المجتمع، الذي لم يتقبله يومًا، وسوَّى الجدران، ثم راح يطليها بأناةٍ ومحبة ونشاط، ورغم أنه كان يتطلع إلى الناحية الأخرى، لكنها كانت تستطيع أن تلتقط الشعاع الذي يلمع في عينيه، ويضيء ما حوله، حتى من خلاف. ابتهج قلبها ثم اغتمَّت، حينما تذكرت البيعة وقدَّاس الأحد، والقربان الذي لن يتناوله أحد الآن!

اقتربت منه حثيثًا، وقد نسيت كمال منظرها، فتركت شالها يسقط- تقريبًا- عن كتفيها، ثم خلعته تمامًا وطوته وحملته فوق ذراعها، حتى حاذت سيدها، وأصبحت خلف كتفه تمامًا، فكرت في أن تناديه، لكنه باغتها متطلعًا نحوها، بعد أن استدار في حركة خفيفة، وراعها منظرُ وجهه المتألق المبتهج، نظر إليها وعيناه تلمعان ثم قال وهو يلهث بحماس:

- «ستحصلين على المطبخ الذي تريدينه يا «مانويلا»، وسنبني غرفةً إضافية للتخزين، أما هذا الوجه المسنُّ القبيح فسنغطيه كلَّه بطبقةٍ جديدة من الطلاء الوردي!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في بداية المساء كانت نوبةُ انبساطه المفاجئة قد زالت، وحلَّت عتمةُ الغروب على روحه، بقي يهيم شاردًا، بعد أن تناول معلقتين من طبق الأرز المطبوخ بالفطر، الذي قدمته إليه، وأزاح الباقي نحوها معلنًا بعناد عن عزوفه عن إكمال وجبته، كان هذا مبعثَ غمٍّ عظيم لـ«مانويلا»، التي اغترَّت بحالة الانشراح المؤقتة لسيدها المكلوم صباحًا، وحسبتها تدوم طويلًا، صلَّت من أجل راحة نفسه أكثر كثيرًا مما فعلت من أجل نفسها. إنها طيبةٌ تقيَّة، تؤمن بأن خدمة السادة بإخلاص هي جزءٌ من الإخلاص الشامل للسلطة العليا،

متمثلةً في الرب، الذي خلق السادة سادةً والخدم خدمًا، غير أنها لم تكن تفعل أيًّا من ذلك تحت ضغط الإحساس بالواجب، والالتزام بحرفية القانون المفروض من علٍ، على أقنان المنازل؛ بل لأنها كانت تحب سيدها حبًّا حقيقيًّا، وتعتبر نفسها مسئولةً عنه، لم يكن يدفع لها أجرها من شروده بانتظام، بل كان ينسى دون قصد، لكن وعندما يتذكر الأمر كان ينظر إليها ببساطة، ويعلِّق دون ضغينةٍ أو نية سيئةٍ:

- «إنك مَن تتولَّيْن مسئوليةَ الإنفاق في هذا المنزل يا «مانويلا»، فعندما أنسى أن أمدَّ يدي لكِ بالعشر ريالات المباركة في موعدها، فضعي يدك في كيس المال وخذيها، ثم مدي يدك إليَّ، وأعطيني ما تبقَّى من نقود، لأشتري بها فُرَشًا وألوانًا!»

كانت يتكلم ببساطة، معزِّزًا صفتها كسيدةٍ للمنزل، لا خادمة فيه، ولذلك كان شعورُها نحو البيت وقاطنِه هو نفسُ شعور الزوجة أو الأم نحو منزلها، المشمول بحمايتها ورقابتها، وهكذا كان من الطبيعي أن تغتمَّ عندما يحمل إليهما المساءُ الرقيق مقاطعةً غيرَ متوقَّعة، وزائرًا غير مرغوب فيه إطلاقًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان رسامًا متفرِّغًا في البلاط. أحد الخدم الأوفياء، كلبٌ يتلقى فتات مائدة أسياده راضيًا وهو يهز ذيله منتشيًا، وقد جاء اليوم ليقوم بمهمة صغيرة محدَّدة، مهمة حقيرة، فقد أُوعِز إليه، من قِبَل طرفٍ ثالث رفض الزائر الكشف عنه مطلقًا. استدراجُ الفنان المعزول «فرانثيسكو جويا» إلى نقاشٍ حول هدف محدد: هل هناك إمكانيةٌ لعودته للخدمة في البلاط مقابل أجرٍ أعلى وامتيازاتٍ أكبر؟!

كان العرض مغريًا لكنه غريب. بصعوبة وافقت «مانويلا» على مرافقته لمقابلة سيدها، كان الأخيرُ يفيق ببطء من سِنةٍ خفيفة من النوم، جالسًا فوق مقعد من ضمن ثلاثة متشابهة صُفَّت في نصف دائرة، في غرفة الطابق السفلي، محدقًا بشرود في جدار أبيض. أزال ما عليه من نقوش ريفية وحشية الألوان، ومهَّده بطبقة من الزيت مجهِّزًا إياه ليكون لوحةً خاويةً هائلةً يستدعي فوقها أفكاره، لكن المعضلة الوحيدة أنه وفي تلك اللحظة تحديًدا، لم تكن لديه أفكارٌ من أي نوع، حاكى عقلُه لونَ الجدار، وأحسَّ أنه حتى حواسُّه نفسها توقفت عن التقاط الأصوات والألوان، وتغييرات المحيط الذي يتمركز هو في نقطةٍ في منتصفه. شعر «فرانثيسكو» أن العالم يدور حوله في تلك الساعة، لكنه لم يكن يدور منبهرًا، ككوكبٍ تابعٍ ذليل، يلفُّ خاضعًا حول نجمه المسيطر، بل مجرد مهرجٍ فاشلٍ مخذولٍ سيء الحظ يلتفُّ حوله الجمهور، الذي خاب أمله، مصفِّقًا مهلِّلًا، في شماتةٍ عتيقةٍ منفِّرةٍ وكاسرةٍ للقلب والروح، كان الرجل يحسُّ بتخاذلٍ ويأسٍ وخيبةِ أمل تشمل مساحةً

العالم كله، إن حسبها بالمتر والسنتيمتر وما هو أصغر من ذلك، إن كان ثمة شيءٌ أصغر من ذلك، وكان حلول هذه الروح السمجة، الخادم المبعوث الذي يعتاش من بيع فنِّه المصنوع بمهارة، لكن بلا روحٍ أو موهبةٍ حقيقية، مجرد مقاطعةٍ متوقعة، وتنكيلٍ إضافي بسيد منزل ذوي العاهات، تنكيلٌ بارع وآتٍ بالضبط في الوقت المناسب والمحدد بدقة.

دفعت «مانويلا» بوجهٍ رمادي مقطَّب، وغيظ مستعِرٍ مستترٍ داخلها، بالضيف إلى داخل الحجرة، كانت تعرف أن الوقت غير مناسب، وما من وقتٍ مناسب لتلقي زيارةٍ كهذه في الحقيقة، لذلك شيَّعته بعبارةٍ حاسمة، وتحذيرٍ ذي رنينٍ تهديدي مزعج وصريح:

- «إن سيدي مريض ولا يروم إزعاجًا، لذا أتوقع من سيدي الضيف الكريم، الذي يعرف كل شيء، أن يكون قد تهيَّأ للذهاب عندما أعود من جمع الغسيل في الفناء!»

لم يكن ثمة غسيلٌ في الفناء، فـ»مانويلا» كانت تكذب، لكنها ارتأت أن عملية حساب الوقت المطلوب لجمع بضع قطعٍ من الثياب المغسولة، المنشورة خارجًا، لن تصعب على الزائر ما لم يكن حمارًا كاملًا، وهذا ما توقعته من منظره اللزج المزعج، لكن الزائر لم يكن ينصت، فـ»بنيتو مانويل برافو» لا يفقه فنَّ التقدير أو توقُّعَ ردودِ أفعال الآخرين، وقد اختاروه في البلاط لهذه المهمة بسبب تلك المميزات؛ غبائِه ولزوجته وصعوبة التخلص منه، بمختلف الحيل وكل الطرق، بما فيها الطرد المباشر الصريح والفج!

استقبله «فرانثيسكو» مهمومًا شاردًا، ولم يبدُ أنه لاحظ وجوده أصلًا، أما الثاني فقد كان فخورًا جدًّا بمظهره المحفلط المبالغ، الذي ينفق عليه عن سعة؛ سترتُه الأنيقة المنسوجة يدويًّا، وصليبٌ كبير يتدلى من عنقه، وأغطية الساق الثمينة. دار «برافو» حول المركز الذي اعتصم فيه الفنان الهارب المستقيل، داخَلَه اشمئزازٌ وسرور خفي خبيث، وهو يلاحظ مظهر الفنان المرعب، الذي كان اسمُه وصيته يهزَّان إسبانيا والإيبيريين هزًّا، إذن فهذا هو فنانُ «سان أنطونيو» وخالقُ «الماخات» العظيمة، بهذه المنظر الرثِّ وذهول العقل، وشبهات الجنون القوية!

أخيرًا أحسَّ «برافو» أن له نفعًا ما في هذا العالم، وله قيمة، فأمثاله يستمدون أهميتهم وإحساسهم بقدرهم من الحظِّ من قيمة مَن هم أعلى منهم لأنهم ممتلئون بالإحساس الداخلي بالدونية والحقارة، الْتُبس عليه للحظة، ووجد الجُمل الافتتاحية الفخمة، الذي أعدها طوال الليل تتطاير من داخل جمجمته الضيقة كما العصافير المأسورة من قفص فتحتْه لهم يدٌ محررة أخيرًا، وما لبث أن شعر أنه قذف بنفسه في هاويةٍ لعينة، وحمَّل ذاته

مسئوليةً مهمة يبدو أنها أكبر من كل قدراته، لكنه هنا على أية حال، وقد تجشَّم عناء هذه الرحلة الطويلة، من ورشة النسيج التابعة للقصر الملكي، المحتل بواسطة «فيردناند السابع» وطُغمته الفاسقة، فعليه أن يقدم خدمةً نافعةً واحدةً على الأقل، مقابل النقود التي حصل عليها، والوعود الذي وُعد بنَوالها قطعة من الكعك اللين، إن أفلح فيما جاء خصيصًا من أجله. طبعا كان مدَّ يده بالسلام إلى هذا المخلوق المجنون الغائب العقل تمامًا، نوع من الخبال نفسه. قرر أن يتكلم مباشرةً وفي الموضوع المحدَّد، لكنه وما إن استهلَّ عبارته الأولى، حتى راح عقله الصغير يشغل نفسه بحساب المدةِ المتوقعة التي تستغرقها عملية جمع الغسيل!

قال وهو يفكر في «جويا» وفي الغسيل في نفس الوقت:

- «سيدي.. أنا «بنيتو مانويل برافو» من مدريد، وأريد التحدث إليك لدقائق معدودة!»

فرفع «فرانثيسكو» عينين محمرَّتَين، أحاطت بهما بقعٌ داكنة ملتهبة، وقال ممازحًا بشكل أخاف الزائر الدخيل بشدة:

- «إنها تحتاج خمسَ دقائق لتجمع غسيلها، وثلاثَ دقائق أخرى لتكون فوق رأسك هنا، وقد بددتَ منها بالفعل دقيقتين، وأنت تحملقُ في الهواء، وترتِّب ما ستقوله، فأسرعْ قبل أن تعود المرأة الشريرة، وتمسكك من قفاك، وتقذفك من أقرب نافذة إلى الشارع!»

داخَل «برافو» الغضبُ لأسلوب التحقير والاستهزاء، الذي خاطبه به السيد «جويا»، مهما يكن من علو شأنه، وكاد يردُّ بعنف، مستنفدًا حظه من التأدب المفتعل وحُسن الذوق، لكنه قرر أن يتصبَّر، ولا يسمح لانفعالاته بأن تسوقه؛ لعلَّه يحصل على فائدة مجزيةٍ من تلك المهمة الشاقة الثقيلة على نفسه.

سحب مقعدًا من التي تشكِّل نصف الدائرة، فأفسد الشكل المنتظم للهندسة، التي يفضلها «فرانثيسكو» بشدة، وحاول ألا يدنو أكثر من اللازم، لكن عليه أن يكون قريبًا بما يكفي في نفس الوقت، وجلس على مبعدة أربع خطواتٍ من وجه العجوز، المحدِّق فيه بلا تعبير من أي نوع، ثم سحب نفسًا عميقًا ليوسع من صدره ويزيد قدرته على تحمل الدقائق الشاقة القادمة، ورسم ابتسامةً سمجةً وبلا روح على وجهه اللامع، وقال متصنعًا احترامًا لا يحس به في الواقع:

- «سيدي.. إنني هنا في مهمةٍ محدَّدة، وأصارحك باحترام كبير أنني طالما تُقتُ للقائك والتعلم منك، إن توفرت الفرصة، وأيضًا أن شخصًا مهمًّا في

البلاط الملكي يشاطرني في الاهتمام بأمرك، وهو مَن أرسلني، ولهذا فأنا هنا الآن».

فقاطعه «فرانثيسكو» بمزيد من الاستهانة والتحقير:

- «لقد استنفدتَ دقيقتين أخريين في قول ما كان يمكنك اختزاله في عبارة واحدة، إنك تستغرق وقتًا طويلًا لفعل أشياء يمكن إنجازها عادةً في وقت قصير جدًّا، ولهذا أصارحك يا بنيَّ أنه لن يكون لك شأنٌ في عالم الفن، ولا السياسة، ربما تصبح لصَّ منازل ممتازًا يومًا ما، لكن فنان.. اعذرني..»

وأصدر «فرانثيسكو» من فمه صوتًا معيبًا مليئًا بالتحقير والازدراء. كانت هذه طريقته في إهانة ضيفه السخيف من ناحية، وفي الإجابة عن عرضه، الذي لم يكشف عنه حتى الآن، لكنَّ الأمر كان سيَّان عنده، فهو لا ينوي مغادرةَ عرينه النتن الرائحة، ولو جعلوه سيدًا على القطيع في المقابل يمكنه أن يقول هذا بأبسط وأوضح عباراتٍ ممكنة، لكنه كان يتُوق إلى تلقين ضيفه المزعج هذا درسًا صغيرًا وقاسيًا جدًّا، إذ ربما يكون آخرَ درسٍ يلقيه على أحدهم في حياته هذه، لهذا يريد أن يجعله درسًا خالدًا، وغير قابل للنسيان حقًّا!

ولم يكن الأمر بتلك الصعوبة التي توقعها الطرفان، فلم تكد «مانويلا» تعود، حاملةً معها قطعتين من الملابس الجافة النظيفة، وجرَّةً صغيرةً من عسل الجبال اللذيذ، لتقدم منها جرعةً لسيدها، مثلما تعوَّد عقب تلقي غشياناتٍ مزعجةٍ من متطفِّلين، ولتكسرها على رأس الضيف كمنفعةٍ إضافية، إن كان متمسكًا بالبقاء، بعد أن استنفد المهلةَ الممنوحة له، حتى وجدت الرجل، نسيت اسمه الذي أعطاه لها، يندفع خارجًا من الغرفة، بمظهرٍ بائس حقًّا، وقد تجلَّل وجهه بعلامات اشمئزازٍ وتقزُّزٍ ورعب، واحمرَّت أوداجه المنتفخة، ويُهرع صوب باب المنزل، نصف المفتوح، ليمرق منه خلال ثانيةٍ واحدة، دون أن يلقي نظرةً واحدةً إضافية على «مانويلا»، أو الغرفة التي خرج منها لتوِّه، أو أي شيء آخر من معالم البيت، وفي لحظة كان السيد «برافو»، الممتلئ ثقةً وزهوًا، قد تبخر في الهواء، جارًّا معه وجوده وظلَّه الثقيلين، وقد انخفضت رزانته ويقينُه في عظيم مواهبه إلى الربع وربما أقل!

دخلت «مانويلا» الغرفة لتجد سيدها جالسًا جلسته الأولى، لكنه قام بعمل صغير دون أن ينهض من كرسيه، فأعاد المقعد، الذي سحبه الضيف من مكانه ليجلس عليه، متممًا الشكل المثاليّ لنصف دائرته، ولم يكد يرى وجه خادمته يطلُّ عليه من علٍ بقلقٍ وتحفُّز لتقديم المساعدة، حتى هتف مستنجدًا:

- «انضحي المكان الذي وضع مؤخرته فوقه بالماء يا «مانويلا»، ولا تعودي تذكرين اسم هذا الرجل هنا مرة أخرى!»

تطلعت إليه المرأة بقلق عاصف، حتى كادت تخسر جرَّتها العزيزة، إذ كادت تنزلق من بين يديها، فتتحطم على الأرض العارية، ثم ما لبث أن تلاشى قلقها، وداخلتها طمأنينةٌ، بل وسعادةٌ غامرة، وأنزلت جرَّتها مُقرِّبةً إياها من وجه «فرانثيسكو»، بدون كلمة، وهي تبتسم ابتسامةً مبدئية، ما لبثت أن تحولت إلى قهقهةٍ مرتفعة، شاركها فيها سيدها بكل سرور!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن، وحتى حلول المساء، لم تكن قهقهة «فرانثيسكو» قد انتهت، فقد امتدَّت إلى داخله فأحدثت فيه نشاطًا مباغتًا، ورغبةً محمومةً وحارَّة في العمل، ووجد نفسه يوجِّه انتباهه نحو الجدار الأبيض العاري، الذي مهَّده في وقت سابق، ووقف أمامه عاجزًا مقموع الأخيلة، وكأنما لا يوجد شيءٌ آخر في العالم يستحق أن يفكر فيه غيره، كانت هذه معضلةً تحيِّره، فدائمًا ما كان يجد استفزازًا في أي مساحةٍ خالية، منذ أن كان متدربًا صغيرًا هيِّن الشأن في مدرسة «لوثان»، كان وجود مساحةٍ بلا شيء يغطيها يبدو وكأنه إهانةٌ له، وإنه يذكر كيف وجد نفسه ذات يوم، بينما هو يتجول في سوق لوس كاباليروس، ليشتري قرعةً عسلية لمعلمه كما أوصاه، يستوقف شابةً فلاحةً قميئةَ المظهر، كانت تعتمر إيشاربًا كالح اللون قذرًا، ويطلب منها بصفاقة أن تمنحه غطاءَ رأسها للحظة، وبينما كانت الفتاةُ ترقبه بدهشة، وبعض القرويين القريبين من الحدث يتهيئون لتلقين صبي الحرف الصفيق هذا درسًا قاسيًا ومفيدًا، في حسن السلوك نحو فتيات القرية المهذبات. جذب «فرانثيسكو»، الذي كان عمره حينها ستةَ عشرَ عامًا، الغطاء من فوق رأس الفتاة برفق، ثمَّ فرده على استقامة المثلث غير المقصوص ببراعة الذي خِيط منه، وبحرفية وسرعة كاملتين يضع فوقه، بأدوات الرسم التي اشتراها، بثمن البيض الذي أُدَّخِر في بيتهم طيلة أسبوعين، رسمًا لملاك يطير في سماء زرقاء شديدة الصفاء، تقطعها سحاباتٌ بيضاء موحية بنعيمٍ يشبه نعيم الجنة، ويراقبه من فوق الأرض، المجلَّلة بأبراج تعلوها صلبان ذهبية، تجعل الرجال يؤمنون بالله إيمانًا لا يتزحزح، أو يكفرون به كفرًا لا رجعة فيه، ديك منتفخ الأوداج، يزدهي بريشاته الحمراء الزاهية، وبمعرفته الضخمة، لم يستغرق الأمر سوى دقائق، ثم عاد الإيشارب إلى صاحبته، وقد تحول من فراغ عشوائي إلى مشاع منتظم من الحياة والحركة، تناولته منه الفتاة واجمةً، لم تعلِّق بحرف، ووضعته فوق رأسها بحرص، ثم ابتعدت، وتلاشى الناس المتجمعون حول الصبي الفنان، وبقي وحيدًا، ولم يكن من أثر لعمله المجاني سوى أنه لاحظ بسرور كيف أن الفتاة القبيحة راحت تعامل غطاء رأسها البالي باهتمام؛ خشية أن تُفسد ألوانه، التي لا تزال طرية، وأنها أيضًا، كمعجزة صغيرة، بدت لـ»فرانثيسكو» أكثر إبهارًا وقدرةً على إثارة الدهشة، من إقامة «انطونيو دو بادو» للقتيل ليشهد باسْم قاتله الحقيقي، ويبرئ آخر نزيهًا من الذنب، كهذي

المعجزة التي تشْخَص لها الأبصار، فإن فتاة المذبح الفقيرة الدميمة، بعد أن مسَّها الفنُّ بريشته الرحيمة المعزِّية، لم تعد قبيحةً جدًّا كما كانت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

(9)

مأساة يرويها كلب!

إنَّ للانتصارات الصغيرة لذةً، الانتصارات الصغيرة هي التي تصنع الحياةَ في الواقع، ولذلك ينسحب أمثال «فرانثيسكو» من الدنيا، ويعافونها سريعًا لأنَّ كل انتصاراتهم كبيرةٌ وضخمة ومرئية، تستنفد طاقاتِ أرواحهم، وتخلِّف عتامةً في النفس وخورًا في البدن، الشخص الذي اعتاد النجاح الهائل لا يمكنه أبدًا أن يرضى بالجائزة الثانية أو المركز المتأخر، بل يظل يلهث خلف المرتبة الأولى، ما إن ينالها مرةً، حتى تحترق روحه في حمَّى المنافسة، يمكن لمزارع بسيط أن يفرح بنضج محصوله، هذا الحدث الذي يتكرر كل عام، أو عدةَ مراتٍ في العام الواحد، يتذوق نفسَ الفرحة ونفس النشوة، والنسوةُ الكادحات اللائي يبعن البيض أو الدجاجات في سوق القرية يتمتعن بنفس درجة السعادة كلما حقَّقن واحدًا أعلى في مدخولهن، وتمكَّنَّ من خداع زبونٍ محترف، وتسويق بضاعةٍ تالفة أو غير مستحقةٍ وبيعها له، وكل من يعيشون في بساطة الطبيعة يفرحون كل يومٍ بنفس الأشياء دون كللٍ، دون تعبٍ أو تطلُّع إلى ما هو أعلى، لهذا يعيشون طويلًا، ينجبون أطفالًا ويربُّونهم ويُرزقون بأحفاد، ويكتفون بتجاعيدهم العميقة الطيبة، والتفافِ السلالة الوفيرة حولهم، أما مَن ذاقوا لذةَ العملِ العقلي، وحميميَّةَ الفن، ومتعةَ القرب من السماء وانكشاف أسرارها لهم، مَن شاركوا الآلهة عُلاها، وصنعوا مجدًا بمواهبهم النادرة وغير المحدودة؛ فهؤلاء يكونون في كرب عظيم حقًّا لأن لا شيء يمكن أن يسعدهم سوى ما هو أفضل وأسمى وأكثر كمالًا، يصعدون السلم متطلِّعين إلى ما هو فوق، لا يحصُون أبدًا الدرجات التي قفزوا فوقها أو العقبات التي تخطَّوها، بل فقط يحسبون حسابًا لتلك التي مازالت تفصلهم عن قبة السماء، وكلما صعدوا أكثر تركوا جزءًا من أرواحهم ميتًا مدُوسًا في التراب وراءهم، يدمرون أنفسهم رويدًا رويدًا، وسريعًا لا يعود للنجاح القليل من معنًى بالنسبة إليهم، ولا يكتفون من نهمٍ أو يشبعون من جوع، هؤلاء بؤساء حقًّا، يموتون سريعًا، حتى وإن عاشوا عمرًا مديدًا، محملين بالأمراض والإخفاقات، متذكرين فقط، وهم يُحتضرون على فراش النهاية، كم مجدًا فاتهم؟ وكم نجاحًا أخفقوا في نواله؟ وكم بابًا سُد في وجوههم؟ وكم حلمًا تمنَّوا الوصول إليه وأعجزهم سوءُ حظهم، أو مبلغ الحُلم من صعوبة، أو تدخُّل الآخرين دون دعوة في مسار حياتهم؟ هؤلاء لا ينعمون ببيت، ولا حبٍّ ولا أسرة، وإن امتلكوا كلَّ هؤلاء، لا يكون لشيء، خلا مواهبهم، من قيمة حقيقية عندهم، لا يُفرحهم ما يُفرح الآخرين، ويكون طبيعيًّا، بالتبعية، ألَّا يُحزنهم ما يُحزن الآخرين!

كم طفلًا فقدت «جوزيفا» في إجهاضها، وسوء حظه وحظها؟!

كانت روحها تهلك ببطء مع كل جنين تفقده، أما هو فكان يتألم لألمها، ويتمنى أولادًا كُثرًا مثلها، لكنه لم يحس أبدًا بأن طفلًا مات له إلا عندما يقف أمام لوحةٍ شرع في رسمها، ويمزقها تمزيقًا، إذ يجد نفسه عاجزًا عن إكمالها!

هذا سرُّ نفسه لم يبحْ به لأحد، ربما ما عدا خادمته المخلصة، في نوبةِ مكاشفةٍ واحدة ندم عليها منذ سنوات، لكن المرأة فهمته رغم أنه تراجع سريعًا عن قول جلِّ ما كان يريد أن يعترف به، تمنى لو أنه خلا بين نفسه وبين قول الحقيقة لمرة واحدة، السادة لا يمكنهم أن يبدوا ضعفاء أمام سادةٍ مثلهم، لا يستطيع الملِك أن يبكي بين ذراعي زوجته، فالملكة لا تفهم الدموع، بل تزدريها وتحتقر ضعف حاكمها وحاكم البلاد، لكنه بكل سرور يبكي ويندم ويتعذب في أحضان عشيقةٍ، أو خادمةٍ يتخذ منها فراشًا إضافيًّا له، قيل له دائمًا إن الملوك يتخذون العشيقاتِ والخليلات لهذا السبب، ودائمًا ما تعرف العشيقة عن الملك أكثر بكثير مما تعرف الزوجة الشرعية، المنغمسة في حمَّى البلاط ومستنقع التقاليد والقواعد الملكية، و«مانويلا» يمكن اعتبارها عشيقته المخلصة تجاوُزًا. عين الحقيقة أنه يحبها، ونهاية الكذب أنه يراها مجرد امرأة، لا.. إن لها شأنًا آخر، وإلا فلماذا يبقيها راعيةً له بعد أن تخلص بقسوة ممن سواها، ولفَظ الآخرين بلا ندم؟!

مبلغ أهميتها له أنه ليس بحاجة إلى مصارحتها بشيء، إنها تفهمه من مجرد نظرةٍ من طرف عينه، أو لفتةٍ هينةٍ من رأسه، وبذلك توفر عليه ألمًا عظيمًا، لم تعد بِنْيتُه المتهالكةُ تتحمله.وبعد أن رحل مندوب الملك الداعي، كلبُ سيده المخلص، غاص في وحدته القاسية، أحسَّ ضجرًا ورغبةً في الفرار إلى مكان لا يجدونه فيه. هل يهجر إسبانيا كلها، ويبحث عن ملجأ له في فرنسا أو روما؟!

لكم يكرَه روما بشوارعها القديمة الرائعة، وتفاصيل حياتها المشطورة بين إمبراطوريةٍ تحاول النهوضَ، وفرْضَ وجودها من العدم، وبين حاضرٍ قاسٍ يتغافل عن تاريخ مُلقًى وراءه، إذ لم يعد ينفعه بشيء، يكرهها في هذه اللحظة بقدر ما أحبها طوال عمره، ربما لأنها تذكِّره بالرجل الذي كانه، الرجل الذي يعجز عن استعادته الآن، الروح التي ماتت على أعتاب القصر المظلم، الحافل بالجنون والقسوة والمؤامرات، ومصائب إسبانيا المبتلاة المتألمة، والسكرات الموجعة التي تجعله يسأل نفسه دومًا:

- «هل عشتُ هنا حقًّا وقدمتُ فنًّا خالصًا؟! هل أنا عشتُ يومًا من الأساس؟!»

شعوره بأنه قد يكون ميتًا، ملقًى في قبره يتلقى حسابًا عسيرًا، ويسترجع- بتقنية ملائكة العذاب، وكتاب الأعمال المخزية المنشور أمامه- كلَّ مظاهر ولحظات حياته الماضية؛ لا يفارقه يومًا، يغيب ويحضر كل ساعة، حتى ليفكر

أحيانًا في أن يطالب «مانويلا» بأن تقدم له دليلًا حسيًّا على أنه لا يزال حيًّا يرزق!

ما أعظمَ خبالَه إنْ فكر في الوصول إلى هذا الحد، عليه قمعُ نفسه، وما من وسيلة للهروب من الموت أكثر من الانغماس فيه، لا يطارد شبح الموت ساكني القبور المخضرمين، إنما هو ينصب الفخاخ، متحسسًا نصلَ منجله الحادِّ الذي به يقطف الرؤوس، لتعيسي الحظ الذين لا يزالون يباشرون الحياة ويعيشونها، وتعتاش هي عليهم يومًا بيوم؛ لذلك فإن أفضل وسيلةٍ لتضليل الموت هي أن نتظاهر بأننا موتى بالفعل، لكم رأى الفَناء يسرع متشوقًا إلى شباب يفيضون حيويةً وبشرًا، ويرمون بأنفسهم في تيار الحياة، معتقدين أن منيَّتهم بعيدة جدًّا، بينما يتدلَّل ويتجاهل فانين ومرضى ورجالًا أودَت بهم الحياة، ويتمنَّون الموت لأنه خلاصهم الوحيد!

أما هو فخلاصه ليس بالموت ولا حتى بالحياة، لا يعرف له سبيل فكاكٍ، وأحيانًا يظن أنه لم تُصبه قطرةٌ واحدة من دم الفادي المرشوش، وتغسل ذنبه الأصلي القديم، هل كان هو مَن رسم ثمار الشجرة الملعونة لآدم؟ أم مَن جمَّل ثمارها بزهو ريشته؟ لعله لذلك بات يختار أشدَّ الألوان قتامةً ومجلبةً للعتمة والظلام، يختبئ في الظلام، من نفسه أكثر من الآخرين، كما يخبِّئ الشيطانُ الطائر قُبحَه ودمامةَ ملامحه في ظلمة الليل، الذي يبادله سترًا بستر وتكتمًا بتكتم!

- «الليل صديق عظيم فهو لا يفضح الأسرار أبدًا!»

وكم هو بحاجة إلى صديق مخلصٍ يصارحه، ويضمن ألا يفضح سرَّه بكلمة، أو همسةٍ أو إيماءة، أو إشارةٍ تجرح فؤاده جرحًا بليغًا لا يشفى أبدًا.

في تلك الساعة كان الهدوء يريم على الكون من حوله، وزحام الفوضى يصنع من وعيه صورةً ثابتةً لا تتحرك، كوجهٍ جامد لا تشتغل فيه عضلةٌ واحدة، حتى يداه بدا أنهما تيبَّستا وما عادتا تصلحان لصنع شيء، راعه خاطر أن يمتدَّ عجزه إلى أصابعه وكفَّيْ يديه، بإمكانه أن يستغني عن قدميه، ف»مانويلا» تستطيع أن تطعمه، وتنظفه وتقضي له حوائجه، وهو جالس عاجز عن الحركة، وفقدانُ سمعه ليس بالخسارة الفادحة، لأنه لم يعش على صيت أذنيه أبدًا، وحتى إن فقد ذاكرته فهو متأكدٌ أن حسَّه كفنان سيبقى حيًّا ملازمًا له، لكن ما بالله يفعل لو أنه يديه تجمَّدتا، وما عادتا تسعفانه؟! كيف سيعيش وهو لا يسيطر على آلهته العشر الصغيرة؟!

خنصران وبنصران وإصبعٌ وسطى في كل يد، وسبَّابتان وإبهامان يتساندان في يمناه ويسراه، تلك هي كل ثروته البائسة الصغيرة الباقية. ظهرٌ مُنْحَنٍ وحياةٌ بائسة، المدخرات القيِّمة التي احتفظ بها لتقيَه شرَّ خيبة شيخوخته

القاسية، الثروة التي ضحَّى لأجلها بسنواته في البلاط، وأيامه كمواطنٍ مكلوم في ربوع إسبانيا الجريحة، التي تنزُّ منها دماءٌ ودموعٌ وخمرٌ كجسد المخلِّص الجريح، وكزائرٍ يبحث عن ملاذه في بلاد غريبة، ليست تشبهه ولا تحمل صفةً من روحه، ولاً من أرض وطنه، يُحمد لهم أنهم تركوا له يديه سالمتين، والشكر لـ«مانويلا» أنها لم تقطع له أصابعه في نوبة إفاقة عقلٍ وخذلان ضمير، لكي تجنِّبه وتجنِّب نفسها الآلامَ العظيمة القادمة. داهمه رعبٌ وهو يتفقَّد يديه، يراقب أصابعه ويعدُّها مرةً بعد مرة، يتأكد أن كل أصبع في مكانه، بعُقله الثلاث وحبَّات مفاصله الملتهبة القاسية، لقد أسرف في إنفاق مدَّخراته، واعتبر عقلَه ويديه أشياءَ لا تبلى بكثرة الاستعمال، فجنى على نفسه وعليها، وفي ليلةٍ كهذه مظلمةٍ حارَّةٍ وكريهة، حيث ترتفع في الجو أصواتُ طنين الذباب ورائحةُ ثمارٍ متعفنة، وصهدُ عرقٍ وروائحُ احتراقٍ وتفحُّمٍ غريبةٍ، وأصواتٌ متنافرة تأتي من كل صوب، حاملةً معلوماتٍ متضاربةً، مشكِّكةً بقوة في يقينه ويقين العالم الراقي الثابت والمغفل:

- «يعيش الفلاحون والفقراء في جنة صغيرة في قراهم قريبين من الطبيعة!»

لكن اللعنة على الطبيعة، إنها أقسى من الإنسان ذاته، وأكثر وحشيةً، وحشيَّته هو وهو يضغط على يديه لتطيعا أوامره، ويجبرهما على العمل، رغم الألم الذي يعصف بكل خلجةٍ في روحه، وبياض صفحة عقله، وهمود همَّته وفتور قلبه، مجبرًا طرًفا، مهمته الحركةُ واللمسُ وأداءُ المهمَّات الروتينية، على أن يتحول إلى عقلٍ ثانٍ له!

منذ أن جاء إلى منزل العاهةِ المقيمة هذا وقد انفصلت يداه عنه، أعلنتا استقلالهما، كتلك الدويلات الكاذبة في أرض كاتالونيا، وتمتَّعتا بحكمٍ ذاتي واستقلالٍ كامل. ما عاد مهيمنًا عليهما، بل هما الآن المتسلطتان وصاحبتا السيادة، إنه يقترب من جدار خاوٍ بعقل أشدَّ خواءً، ثم يبتعد عنه ليجد حياةً كاملةً مطبوعةً عليه، حياة اجترحتها يداه واخترعتاها اختراعًا، لا يفهم كيف حدث ما حدث، لكن في تلك الليلة كانت يداه تحكيان قصةً عن كلب، كلب ضائع وحيد، في كون مظلم، مغمورٍ في مستنقع، مستنقع لا أول ولا آخر له، بقعةٌ ضحلةٌ سبخةٌ من المياه الراكدة، لكنها قادرة على ابتلاع المحيط ذاته، وفي رغبته كان «فرانثيسكو» يتمنى سلامة الكلب، يتوق لأن يستنقذه سالمًا إلى الضفة، لكنَّ اليدين المتمردتين كان لهما رأيٌ آخر، ضغطتا بقسوة على الرأس المتطلع إلى التحرر، وجذبتا من الخلف بقوة، لم تستطيعا أن تجرَّاه إلى قلب المستنقع، لتدفناه حيًّا في بركة من الوحل والعفونة الآسنة، لكنهما أيًضا لم تدَعاه يفلت بفعلته، تحفَّظتا عليه في الوسط الملعون من الطرفين، حيث يرفضه مَن هو على يمينه، ويزدريه من على اليسار، يلومه الطرفان ويحمِّلونه مسئوليةَ الغرق، كما بالضبط يرفضون حقه في النجاة والإفلات.

حياةٌ بائسة، الكل يلومك فيها مهما فعلت، فإن بقيتَ في البلاط فأنت رجلٌ تبيع نفسك بالمال، خادمٌ لعين لسيد لا يرحم، وإن هربتَ متحررًا فأنت عبدٌ آبقٌ لعين ناكرٌ جاحد لا تعرف وفاءً، ولا إكرامًا لجميل السادة، الذين علَّقوك من عنقك بحبل، ثم قالوا لك اذهب حيث تشاء، فنحن لا نقيِّدك ولا نؤذيك!

وبالنيابة عنهم كانت يدا «فرانثيسكو» تؤذيان الكلب عن عمد، في تلك اللوحة الغامضة، تجرَّانه إلى الخلف، وتعملان على غمس رأسه تحت الماء، لكن لشدة قسوتهما، هذه القسوة التي استمدَّتاها من سنوات طويلة صافحتا فيها أيدي النبلاء والأميرات وسادة البلد، النهَّابين المحملين بكل خطيئةٍ وكل إثم، دون أن تكشفا شيئًا من مشاعر صاحبهما الحقيقية، هذه القسوة التي أفادته كثيرًا زمنًا طويلًا، صارت الآن عبئًا عليه، وبدلًا من قيد واحد أصبح في رقبته قيدان، الثاني منهما من صنعه الخاص، حبلٌ غليظ جدَله بنفسه وأحكم ضفيرته الشريرة؛ لذلك كان هو الأكثر قسوةً، والأشد تعذيبًا له!

في خلفية اللوحة ظهر فجرٌ برتقاليٌّ مقموعٌ ويائسٌ، فجر لا يملك شيئًا أمام هجمة عتمة الليل الضارية، فبقي الكلب وحيدًا مهجورًا، وكأنه فذٌّ بين سلالته، كآخر كائنٍ حي بقي فوق الأرض، بعد خرابها النهائي، مقيدًا مشدودًا يكافح من أجل حياة، لن ينفعه بشيء أن يتخلى عنها، ويستسلم!

إنها نكتةٌ أن تجاهد لكي تحصل على مزيد من السنوات في السجن، أو أن ترغب فقط في أن يمنحوك وقتًا أطول قبل أن يعلقوك من حبل مشنقة، أو يغرقوك في المستنقع، نكتةٌ أن تطيل عذابك بنفسك. ما أشهى الموت إن كانت الحياة كئيبةً رماديةً معذبة، وكان الفجر الذي تراه منبثقًا أمامك في الحقيقة ليس إلا إشراقةَ موتٍ رحيم ودودٍ وسريع، ولا يخلِّف ألمًا!

لم يشعر «فرانثيسكو» بأي شفقة نحو الكلب، بل ملأته قسوةٌ ممزوجةٌ برغبة حارةٍ في تخليصه بأي سبيل، لكنه- في نفس الوقت- تمنى ألا يستطيع الكلب الحصول على الخلاص أبدًا، فليس من العدل أن يُخلَّص كلب، ويهلك العجوزُ الآبق محمَّلًا بذنوبه!

كانت اللوحة قاسيةً وشريرةً ومُعِنفةً، مؤلمةً ومثيرةً للإحباط والخذلان، تتلخص فيها كل المشاعر التي عرفها الناس، خيرُها يساوي شرَّها، ولا عدلَ في أن تميل إحدى الكفتين يمينًا أو يسارًا، فليبقَ المذنب معلقًا هكذا من حلقه، بين النور والظلام، بين الحياة والموت، تحقيقًا لمبدأ القسوة الشاملة، التي لا تعرف رحمةً من أي نوع!

كان هذا خاطرًا أهوجَ سكن أخيرًا، بعد أن استعلن وكشف عن نفسه، واستكان «فرانثيسكو» وهدأ ثورانُ نفسه، بعد أن تيقَّن من أن يديه لا تزالان بخير، حتى وإن تمرَّدتا عليه للمرة المائة، وانحازتا إلى حياةٍ خاصة بهما، لا

تسمحان له بالتدخل في أي من تفاصيلها، لكن قسوة اللوحة وعتمتها جعلته عاجزًا عن تحمُّلها، وحتى فرَّ من هذا البيت، مطارَدًا بأوهامه الخاصة، لم يتحمل النظر إليها مرة أخرى أبدًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(10)

اسموديوس: خلاص بدون سفك دم!

خميسُ عهدٍ تعيس موحش، حيث بقي قاطنو البيتِ المعزول بعيدين عن روح تذكار الآلام، ووليمةِ إنشادِ جوقةِ الكنيسة، والفرحةِ الخالصة في الاندساس بين قطيع المؤمنين، الذين يتنعَّمون في غفلتهم الشاملةِ المطبقة. أمسيةٌ مقفرةٌ كهذه تمثل ليلةً مناسبةً جدًّا ليحضر فيها الشيطان، في الحق أقول لكم أن كافة الأوقات ملائمةٌ جدًّا بالنسبة لإبليس، إنه لا يتأخر عن موعده ولا يحضر في ساعةٍ مبكرةٍ أبدًا، يأتي تمامًا في وقته وبالضبط، كل المواعيد هي مواعيده المناسبة، من الجيد أن تعرف متي تختار ضحيَّتك، وكيف توقع بها، لكن الخيار الأفضل أن تأتي الضحيةُ بنفسها لتعرض نفسها عليك، وقد قرر «فرانثيسكو» أن يعرض نفسه على الشيطان هذه الليلة، ألا يقولون أن الشرير يشتري الأرواحَ البائسة المعذَّبة، ويدفع ثمنها ذهبًا خالصًا؟ حسنًا.. إنه لا يطمع في الذهب، لا يفكر فيه مطلقًا، بل يكفيه أن يكون نصيبه من الصفقة هو انكشاف غطاء بصره، ومعاينته لما هو فوق الوجود. إن الفن هو عقدٌ مفتوح مع الشيطان والأرواح الشريرة، عقدٌ بدون شروطٍ أو ضوابط، لا أحد من طرفيه يقدم أيَّ وعود، ولا يطلب أية ضمانات، ولا يتوقع تنفيذ بنود أو التلويح بشروط جزائية، عقدٌ على بياض، يُلقى في الخزانة، خاويًا مبيضًّا، تنساه عمرك، ولا ينغص حياتك ذكرى وثاقك المرعب، مع القوى الأكثر شرًّا وضراوةً في الكون، ثم حين تشيخ وتتقدم بك الأيام، وتُصمُّ أذناك أو تعمى عيناك أو تتيبَّس اليدان اللتان كانتا تصنعان العجائب، يهبُّ الشيطان سخيًّا إلى نجدتك. قد يقدم لك معونةً حقيقية، مقابل ثمنٍ باهظٍ وغير عادل في معظم الأحيان، لكنه غالبًا، يتقاضى نفس الثمن أيضًا وبذات شروط الإذعان الذليلة، لا يعطيك إلا مجموعةً من الأوهام والأحلام والكوابيس، تنغمس فيها، معتقدًا أن كل ذلك حقيقي، حتى تنفتح عيناك على الحقيقة الأخيرة الرائعة، التي لا تقبل تفاوضًا أو مماطلةً من أي نوع، الموت!

كان «فرانثيسكو» بحاجةٍ إلى الروح الشريرة هذه الليلة، وكان الشيطان بحاجته وفي حاجته أيضًا، لن يفوت الشر القديم هذه الفرصة، مع أن المغنمَ هزيلٌ في الحقيقة، ومضمونٌ دون مخاطرة، لم يفقد الرجل إيمانَه للحظة، لكنه اختفى تحت ركامٍ من التساؤلات المحيرة، والإجابات غير المُرضية، والتفسيراتِ المخيِّبة للآمال، كأن تذهب إلى طبيبٍ ويعودك بدوائه يومًا بعد يوم، لكنك لا تشفى ولا تتحسن، فتلعن الطبيب وعلمه، لكنك أبدًا لا تتشكك في أن العلم نفسه نافعٌ ومُجدٍ، ومرة أخرى تلجأ إليه حينما يزورك المرض، زائرٌ ثقيل غير مدعوٍّ أبدًا، وربما تطلب الطبابةَ والدواءَ من نفس الحكيم

الخائب، وإذا كنتَ جديرًا باللعنة التي سُقتَها إلى نفسك حقًّا، فإنك لن تشفى إلا على يديه هو بالذات!

هذه هي الدعابة الكبرى في العالم، إيمانٌ لا ينفع وشرٌّ لا يضر، نقيضان يؤدي كلٌّ منهما عملَ الآخر، ومع ذلك فوجود الشيطان مهم دائمًا، أكان بوسع الربِّ أن يتمم خطة الخلاص بدون إبليس حيًّا أو ميتًا؟!

كلَّا.. كلَّا، فقد كانت القصة لتكون عدمًا لولا مقاطعته الفريدة في منشأ الكون، وهو هنا حبيسُ منزله، رهين نفسه المتنازعة، يحس بمشاعر الإنسان الأول وهو مقيدٌ بسلاسل الطين، كتلةٌ بليدة جامدة بلا روح، تستقبل الحياةَ بدهشة وخوف، فريدةٌ من نوعها، لا ثانيَ ولا مثيلَ لها، محاطةٌ بالخطر من كل ناحية، ولكن أيضًا مغموسة بكل أنواع النعيم، جنةٌ كاملة تحت تصرفه، لكن النعيم الأبدي يبدو مملًّا حقًّا، وكئيبًا وموحشًا، لذلك كان لا بد من المرأة، وجاءت المرأة ومعها الألمُ والشقاء، ومخاطرُ العذاب، وأوجاعُ الولادة، وسقم العالم والمجاعة والعطش والجفاف والموت، حفرة الكبريت والنار، كل ذلك لأن الواحد هو الرقم الصحيح، وأيُّ انقسامٍ للواحد لا يصنع إلا صورتين ممسوختين، لا تكملان بعضهما بل تجلب كلٌّ منهما العذابَ واللعنة لنصفها الآخر، أدرك دائمًا أن الوحدة مكتوبةٌ عليه، إن أراد أن يستعيد لُحمته ويعود واحدًا صحيحًا، سليمًا من التقسيم والانشطار والتفتيت، لكنه يعترف بسماحة نفسٍ أن وحدةَ الواحد الصحيح مؤلمةٌ وقاسية، ربما أقسى من معاناة النصفين غير المستويين، إنه لم يجد نفسه في أحدٍ آخر مطلقًا، حتى المرأة التي أحبها وأنسل منها الأبناء الموتى، سلالته المجهضة والمقتولة بحكمٍ كوني، لا يفهم له معنى، مشمول بالنفاذ والاستغلاق الكامل والغموض، قيلَ له لا تسأل، آمنْ فقط، فآمن فقط، لكن إيمانه لم يحمِه من الألم ولم يكفَّ حمَّى التساؤلات عنه، غير أن خطأه قد يكون بسيطًا ومباشرًا في الحقيقة، مجرد أنه وجَّه أسئلته إلى الجهة الخطأ، فربما كان الربُّ لا يملك إجاباتٍ على استفساراته الكثيرة، وربما كانت الإجابة عند النقيض والضد والعدو!

الشيطان يملك أفضلَ النغمات، وكذلك يحتفظ بكافة الإجابات في جعبته، فليستدعِه، ويطلب منه جوابًا واحدًا، يشفيه ويخرس قلقَه وصخب روحه، لكن هل سيحمله معه إلى جهنم؟!

لا بأس، فهو يعيش جهنم الخاصة به هنا، جحيمٌ من صنعه واختياره، ولن يضيره كثيرًا أن ينتقل إلى جحيمٍ لم يختره أو يحدد شيئًا من تفاصيله، إننا نعتذر أمام أنفسنا بجهلنا ورعونتنا دائمًا، وهو عذرٌ مقبول وشافٍ لأوجاع النفس، لذلك فمن الأفضل أن نُرمَى في جحيمٍ من صنع غيرنا، لنشكو ونصرخ كما يحلو لنا، فلا يمكننا أن نحتجَّ على شقاءٍ سقناه وخططناه لأنفسنا!

حتى ما بعد منتصف الليل جلس الرجلُ العجوز المحطّم ينتظر حضور الشيطان، كان يعلم جيدًا أنه لن يسمع خطواته خلفه، ولن يشم كبريتًا أو رائحةَ قشٍّ محترق، فسمعُه معطَّل، كما أنه فنان، والفنان يعلم جيدًا أن للشيطان رائحةً زكيةً طيبة، أطيب من رائحة الملِك ذاته، إن الشيطانَ هو أول من صنع العطور واستحضر الروائح الطيبة، ليستغوي بها المضلِّلين، الذين يُساقون من حواسِّهم كالمغفَّلين، أخبره معلِّمُه «لوثان»- قدَّس الله روحه في النعيم- أنَّ كل ما يقولونه عن إبليس في الكنيسة هُراء، لم يتمادَ الرجل فيصف مزيدًا من صحيح معتقداته، بدا التعليق بالنسبة ل»فرانثيسكو« الصبي تجديفًا وإلحادًا خطيرًا، لكنه تعلم فيما بعد أن قمة الإيمان هو أن تصنع تصوراتِك الخاصة عن الله ويسوع، والقديسين والملائكة، تضع طابعك الشخصيَّ على مخلِّصك، وتجعله صورةً منك، مَن يعبدون مسيحَ أنفسهم يُخلَّصون، ومن يعبدون مسيح الكرسي الرسولي يمكن جرُّهم من آذانهم إلى الإلحاد، بمجرد شبهةٍ واحدة زائفة تدخل عقولهم الخاوية!

- «املأ عقلك بمسيح نفسك، حينئذٍ لن يجد الشيطان فراغًا في روحك ليحتلَّه!»

بهذا اليقين انتظر قدوم الشيطان، وكان مستعدًّا لاستقباله، لكن الشيطان لم يحضر، سخِر منه، أو استهان بشأنه، لكنه لم يحضر بنفسه، غير أنه أرسل مندوبًا عنه!

في الظلمة، التي فرضها على نفسه، أحس «فرانثيسكو» بحضورٍ قوي، وجود مزعج لكنه خفيف، يتراءى له من طرف عينه، حتى إذا ما حاول مواجهته راغ عن ناظريه، شيءٌ لزج خفيف لكنه متشبثٌ وقوي وحاذق ومصرٌّ، ثمة خطرٌ كامنٌ هنا، خطر غير منكشف، ولا اسم ولا صورة له، فكر في أن يتحدث إليه.. لكن ما الفائدة؟!

انغمس الرجل في نوبة نشوى، رأى خلالها ظلًّا ينفصل عنه، كأنه روحٌ ثانية له، شيءٌ دخيل مزعج، لكنه- بشكلٍ ما- محفزٌ وباعثٌ على النشاط، مع تأكده بانشطار روحه إلى نصفين لم يعد لدى العجوز الأصمِّ ما يقلق بشأنه، ليس الآن على الأقل، كان محلقًا في سماء غرفة الدور العلوي، مراقبًا أحدَ جدرانها وهو يتحول من حائطٍ صلدٍ قاسٍ وجامد، إلى حديقة تزخر بالحياة والوجود والصَّخب، لم يكن له فضلٌ فيما يصنع، لكنه دون أن يدري، كان هو من يصنعه فعلًا، ظهرت أمامه سماءٌ كئيبة، رغم أنها ساطعة بالأنوار، وفي منتصفها يبرز الوجودُ كقمة جبل أجردَ خربٍ، جبلٌ يهيمن عليه الرجسُ والخرابُ والخوفُ والعقم والجفاف، ركيزةُ الشيطان ومقرُّه المحترم، هل توقَّع البشرُ السذَّج أن من فارق سماءً ممنوحةً له بطلبة العبادة المخلصة، ولو مؤقتًا، سوف يترك الأرض التي نُفي إليها غفلًا من وسمِ لقبه، وتمكين مُلكه عليها؟!

«اسمودويوس» ليس هنا يا فتى، لكنه هنا أيضًا، إنه في كل مكان، مثل إلهك بالضبط، لكنَّ عينيك كليلتان كأذنيك تمامًا، ذهنك متوقدٌ لكنه خامد ومهوم في سماءٍ شبحيَّة لا يُرى منها شيءٌ محدد، له هيئةٌ وشكل ولون، كل شيء مغموسٌ في الظلام والوحشة والظلال الكئيبة، هكذا الوجود نفسه، لغزٌ غير محلول، يجتهد الجميع في العثور على مفتاحه، لكن ما أتفهَ الحلَّ! وما أشدَّ خواء سرِّهم، حينما يحصلون أخيرًا على جواب شفرته!

وكمثيل لك كان التائه المذعور يحلِّق بلا عذر في سماء لا تخصُّه، أقحم نفسه في لغز أكبر منه، لهذا كان الخوف يملأ وجهه وهو يلوذ بسيدةٍ تعرف كل الأسرار، تلفُّ وجهها بثيابها، مخفيةٌ حقيقة كريهة لا ترغب في أن يتلصص عليها أحد، سرٌّ قديم مؤذٍ وخطير وسامٍ، محتضنة الرجل الخائف، ولا أحد فيهما يمنح أمانًا للآخر، بل ربما كان وجودهما معًا سببًا للخطر والهلاك، لو كان أحدهما واحدًا صحيحًا لما كان هناك أي شرٍّ ينزل بهما، كما كان «آدم» آمنًا تمامًا وهو واحد، قبل أن ينقسم على اثنين، هذا سرُّ الفردوس ولغزه، إننا لكي نصل إلى سماء الرب مبرَّئين من كل الأحمال، نتخلص من كل ارتباطاتنا مع هذا العالم، نتبرأ من آبائنا وأمهاتنا، ونزدري عاطفة الأبوة، ونتخلص من كل شفقةٍ نحو جيراننا أو أصدقائنا، ممن لا يشاطروننا نفس إيماننا، ولا يتقبَّلون الحقيقة التي قبِلناها نحن، حقيقةٌ وحيدة حتى وإن كانت خاطئةً وكاذبةً تمامًا، كوجود «اسموديوس» في تلك الصورة المرعبة. كبيرٌ جدًّا، ظاهرٌ جدًّا، لكنه مشوَّش يسهُل إنكاره والتظاهر بأننا لا نراه، هذه لعبة الشيطان الكبيرة، إنه موجود جدًّا دون أن نراه، يلتصق بجوارنا دون أن يدَعنا نحسُّ به، يدسُّ أصابعه بين أهدابنا بغير أن تطرف عيوننا، موجود وغير موجود، كيانٌ هائل مزعج لكن لا يراه أحد، ولا يحسُّ معظم الناس بوجوده!

- «اسموديوس».. هل يتحتم عليَّ أن أجثو على ركبتي وأصلي متذللًا؟!»

- «لا.. نحن لا نجلب الأذلَّاء إلى محرابنا، لا حاجة لنا بهم، إن كل زبائننا يتمتعون بكرامة لا تفتأ تُضيق عليهم سبل عيشهم!»

هذه أفضل نعمة يعطيها الشيطان إلى مريديه المخلصين، حتى وإن لم يكن الشيطان ذاته، بل صورة ممسوخة منه، «بعل زبول»، «ممنون»، «اسموديوس»، كم صورةً وتجسيدًا يملك الشيطان هذا الخارق؟!

- «كلُّهم واحدٌ وكلهم في واحد، أبٌ واحد وكثير من الأبناء، وكل هؤلاء في النهاية واحد، إن لدينا قانون إيماننا الصارم بدورنا!»

كان من المفترض أن يضحك عند تلك النقطة، لكنه لم يفعل، اغتمَّ صدره برؤية تلك المرأة المخبَّأة بوشاحها، المنقذة التي يلفُّها الخوف، ما شكل

الخلاص الذي تحصل عليه وأنت تجوب السماء بصحبة مرشدٍ أعمى؟ مرشد أكثر ضلالًا وترددًا منك!

لكن من قال أن لك خلاصًا يا عزيزي؟!

كان الوجود الثقيل قد انسحب، وعادت الشموع المطفأة تتوهج في الغرفة، أنيرت الظلمة حوله، فوجد جداره الفارغ مغمورًا بحياة كريهة، حياةٍ خائفة مليئة بالتردد والحسرة. حاجٌّ سيّئ الحظ يدور حول قبةٍ مفرغة.. معبدٌ لا يسكنه إلهه، بل عدوُّه. أي بؤسٍ في أن تُجبَر طيلة عمرك على أن تعبد عدوَّك، وتقيم له وزنًا، وأنت تمقته؟!

كانت نبوءة «اسموديوس» الكريهة لا يزال صداها يملأ الفراغ من حوله، وقد أثر انسحابُ رسول إبليس- بديله غير الكفء- في تدهور أحاسيس الفنان، واختلاطٍ خطر في مشاعره ووظائف جسده، فلم يعد عضوٌ واحد في جسمه يؤدي وظيفته على نحو جيد، كلٍ شيء تداخَل، وانفلت زمام سيطرته على نفسه، وحده بقي عقله منشغلًا، كقائد مهزوم يحاول يائسًا جمع جنوده الفارِّين المثخنين بجراحهم، لكن الهزيمة كانت قد وقعت على أية حال!

ولا جيش في العالم يمكنه أن يحرره من خوفه، وانهياره الجسدي والعقلي في تلك اللحظة، لا.. ولا حتى البابا بنفسه، بقلنسوته وزيِّه الكهنوتيِّ وسطوة عصاه الموشَّاة برمزية الحية، التي طردت سحرَ عدو «موسي»، وأكلت صنيعهم المتقن. كل ذلك أضحى بلا فائدة، فالحق أن إفراغ كوابيسك يتركك في حالة من الخمود والموت والرعب، أغلِقْ الجفنين المقرَّحَين بالسهر والانتظار والمرض، ونم طويلًا حتى تخلص وتموت!

لكن مندوب إبليس كان قد قرر مسبقًا- وبلا رحمة ولا فرصة للمراجعة- أنه لا خلاص لك، لا خلاص لك، ولا لأيِّ قاطنٍ آخر في ذلك المنزل التعس المنحوس!

رقد بقية ليلته على الأرض، محاطًا بمخلفات معركته الفاشلة، التي لم يخضها بقواه الخاصة، وعلى الحائط الأخير في الغرفة آخرُ جدار منكشف للشمس والنور، وغير مغطًّى بظلال الظلمات، التي تريم على جنبات نفس مالكه الحزينة، بقي شيطان تابع لعينٌ ومضلل وكذوب مهيمنًا، لقد خرج إلى النور، أُخرج بيد بارعة. والشر إن خرج إلى النور فإنه لا يعود إلى الظلمة أبدًا، ليس باختياره الحر على الأقل، ومادام لا أحد يملك القوة الكافية ليجبر شرًّا مهيمنًا بازغًا على العودة من حيث أتي، فإنه سوف يبقى هنا، مُحيلًا أحلام ساكني البيت إلى كوابيس، وكوابيسهم إلى موت، ولعنة مستحقة لا فكاك منها. قرارٌ قاسٍ ونهائي ولا فرصة للمراجعة فيه: لا خلاص لك، لا خلاص لك ولا لهم!

ضمائرُ شاردة، لن يحدد الشرير أبدًا على من تعود، أو إلى من تشير!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(11)

دعوة لحفل الساحرات!

في الظلمة الشاملة سمع طنينًا ساحقًا، ضجيج السكون وشغب الصمت، الذي تعوَّد عليه، الهمس الصاخب المؤذي الذي لا يسمعه سواه، ربما لأنهم لا يسمعون على الإطلاق، بعكسه هو. أغلق أذنيه بكفَّي يديه، درع من الحماية المرتجلة لحاسته المتهالكة، التي يجتهد في الاحتفاظ بها أطول وقت ممكن، كلما عادت إليه لحظات سماعه النادرة، صارت كنزًا يجتبيه ويفضِّله على كل كنوز العالم الثابتة والمنقولة، لكن حتى في تلك اللحظات الثمينة لا ينعم بوحدة خالصة، فمازالت الموجوداتُ الخارقة تقتحم خلواته، وتنغِّص عليه بإصرار محاولاتِه الحثيثة للحصول على ليلة واحدة من النوم الهادئ، بيْدَ أن المتسللة العجوز لم تدَعه لحاله تلك الليلة:

- «أين مانويلا لتطردك شر طردة؟!»

فكر في نفسه، لكن المرأة، التي تقف على مبعدة نصف خطوة من فراشه، سمعت خواطره الصامتة، وناقشتْها باستهزاء قائلةً:

- «هيا.. نحن لا ندخل من أية أبواب.. فلا يمكنك بالتبعية أن تطردنا عبْرها!»

كان يعلم أنها على صواب، قبيحةٌ، مُسنَّةٌ، شوهاءُ، عرجاء. عرف هذا من عكازها القبيح المعقوف، جذعٌ قبيح بُنِّيٌّ مَثنيٌّ لشجيرة خبيثة، تطرح مرًّا أو ثمارًا سامة، أو عشبًا ضارًّا يكسو جذعها، نبتةٌ خبيثة لا بد أن بذرتها جاءت من أصل جحيمٍ متَّقد، يقع فيما وراء هذا العالم، الذي يطفو فيه الكوكب المأسور التعس، شعرُها أشعثُ ثائر حول رأسها، وشديدُ البياض، شيبٌ مخيف، لا بد أن تلك المرأة، هذا المخلوق النصف، لم تعرف شبابًا ولا صِبًا في حياتها، بل قفزت مباشرةً من رحم الأم إلى أرذل الشيخوخة، وأسنانها المتعفنة النخرة تعطيها بعدًا إضافيًّا، ملمحًا من فتنة شريرة، تشبه فتنة كأسٍ يترقرق فيه سمٌّ مُغرٍ، صوتها كان هسيسًا مزعجًا، قويًّا خفيضًا حادًّا جلفًا، كصرخة قارضٍ مأسورٍ ممسوك من ذيله النحيل. كان طوال عمره يكره القوارض، يعتبرها حيواناتٍ دخيلة، غير أصيلة، يستحيل أن يتصور أن لهم أصولًا وفروعًا وأصنافًا، وأسلافًا قدماء قبل أن يوجد الإنسان، لا بد أنهم نتيجةُ غلطةٍ ما، أو وُجدوا فقط لكي يكنسوا وساخات البشر على الأرض، ويأكلوا الجيف ويسبِّبوا الكوابيس، وتلك المرأة الغريبة بجواره تمامًا كانت قارضًا هائلًا، الشبهُ بالشبه، حَذْو النعلِ بالنعل، كيف يمكن للإله الجميل أن يخلق شيئًا قبيحًا بشع الخلقة خاطئ الأساس كهذا وكهذه؟!

كاد التجديف المستقرُّ في أعماقه- حبيس رغبة صاحبه في قمعه ومنعه من الانطلاق والتحرر- يطل برأسه، لكن زائرةَ ظلمات الليل لم تعطه وقتًا كافيًا ليناقش خواطره مع ذاته، أقحمت نفسها في عقله، وقالت له بصوت فظٍّ مُصرٍّ، بينما كان نعيق طائر شؤم ما يتردد في الليل المظلم، كئيبًا مروعًا داعيًا بالنحس وسوء الخاتمة:

- «حزِّر! اجعل لجمجمتك نفعًا!»

كانت تتحدَّاه، لكن ما أتفهَه من تحدٍّ! فقد كانت الأمور واضحةً كل الوضوح، فتطلع إليها، والنعاسُ القلق وطبقةٌ زيتية لامعة تطفو فوق ملامحه، التي لم تستعد يقظتها التامة بعد، يجعلان صوته غليظًا متحشرجًا:

- «ساحرة! خادمة للشيطان!»

كان هذا خطأً، وإن كانت الإجابة نفسها صحيحةً تمامًا، لأنه دفعها إلى إطلاق ضحكةٍ شريرة جلجلت في السكون المظلم المحيط به، ضحكةٌ مخيفة آتية بصداها وترجيعها المرعب من قعر جهنم، كانت المرأة فكهةً مرحةً، رغم سَمْتها الكابوسيِّ الشرير، وكفاها ضيفُها، الذي أرغمته هي على استقبالها في منزله دون دعوة، مئونةَ التصنُّع، وتكلُّف آداب الزيارة، فنهرته بمجرد أن توقفت نوبة الضحك، قائلةً بتبجُّحٍ لا يوصف:

- «أي حمارٍ له قرنان يستطيع أن يخمِّن ذلك! لو كنتَ واحدًا منهم فقد قطعتُ مسافةً طويلة لأقبض على هباء إذًا!»

رمش بعينيه، وأحسَّ وخزًا في جفنه الأسفل ورغبةً هائلة في دعكه، إحساسٌ دخيل بعدم راحةٍ أصيل وقديم، كأنه وُلد باعوجاجٍ ما في هيكله العظمي، خطأٌ في تكوينه لم يحس به إلا الآن، بعد أن فات أوانُ إصلاحه وانقضى بدهور، لكن هذه الزائرة الكريهة مصممةٌ على تعكير ساعاته المقتَطَعة من الوحدة الشاملة، والخوف الذي لا يفلح شيءٌ في القضاء عليه، جرثومةُ عجوزٍ لا يشفع ترياقٌ في القضاء عليها، كل العلل قديمة، والموت قديم كذلك، وبنفس درجتهما، فالسحر قديم وموغِلٌ في أزمان مظلمة، لم يدركها أحد، ومن وراء العالم المحسوس جاءت هذه المرأة، مقتحمةً عزلته الليلة، لكن ماذا تريد منه؟!

- «لا يوجد حمارٌ بقرنين أيتها الساحرة!»

قال لها متسائلًا ومُبطِلًا معارفها الخاطئة عن العالم في خبرية متشكِّكة، لكنها أجابت باستهانة كاملة:

- «بلى! لعلَّك لم تطالع وجهك في المرآة منذ زمن بعيد!»

أهين ربما للمرة الأولى في حياته، لكن الإهانة لم تؤذه، بل فتنته وأخذت بلَبِّه، ثمة سرورٌ خفيٌّ يسبِّبه التعرُّض للتقليل أو المهانة على يد شخص تعرف أنك لستَ ندًّا له، ليس لأنه أقوى منك، بل لأنك لا تملك فصاحةً كافيةً للرد عليه، كان السفسطائيون يفتنون شباب أثينا القديمة، ليس لأنهم على حق، بل على النقيض تمامًا؛ لأن باطلهم وهراءهم محصَّنان بمقدرة مخيفة على اللجاج، وقلب الحقائق كلها إلى باطل صغير أملط، لا يستطيع أحد أن يُحكم قبضته عليه، أو يُظهر زَهُوقه.

- «إن كنتَ لا تراه، فكيف يمكنك أن تكافحه؟!»

نعم، قرأت أفكاره ببراعة، ابتهج، برغم أنها تلصصت دون استئذانٍ على دخيلة عقله، كم هو مفرح أن تكون بصحبة شخصٍ يعرف، دون أن تفصح، فيما تفكر، حتى وإن كان ذلك يحمل خطورةً لا بأسٍ بها، ومرة أخرى نعم، إن كنت لا ترى الشر فكيف يمكنك أن تقاومه؟!

هتفت المرأة مسحورةً بصوت مبهور ومثير للشغف:

- «لأنك لو رأيته فلن تقاومه، بل ستُفتن به!»

نعم هذه هي الحقيقة، وهذا هو الجواب الوحيد الصحيح، إن الآباء والكهَّان، ورجال الله والمعلِّمين والمؤدِّبين والمربِّيات؛ يمنعوننا من ممارسة الشر، ليس لخوفهم منه علينا، بل لخشيتهم منَّا نحن أنفسنا، إنهم يعلمون علم اليقين أن الشرَّ جذابٌ فاتن، نفيس، وسيم، طاغٍ وبسيط، ليس معقَّدًا، ولا يحتاج مجلَّداتٍ تشرحه مثل الخير، يمكنك أن تكون شيطانًا بمجرد أن تقرر ذلك، لكن عليك أن تقطع طريقًا طويلًا مؤلمًا، مليئًا بالصعاب، لتصل إلى الله.

- «كيف تسير معتدلًا وهذه الصخرة الضخمة فوق ظهرك؟!»

تساؤلٌ واستنكار وتعجب، مليون حقيقة مختزلة في جملة واحدة، ما أبرعَ السحرة حينما يصبحون مفكرين!

- «لا فلسفة من فضلك، الفلسفة تفسد المعنى!»

أجل، فكل شيء بسيط في الأصل، لكننا نهوى التعقيد والفذلكة، معانٍ ضخمة نخلعها على أشياءَ تافهة، وربما حقيرة، وكل ما مرَّ به في حياته كان بسيطًا وصغيرًا، لكنه تحول بشهوة التعقيد اللانهائية إلى صخرٍ ضخم، شائنٍ وبغيض، يجثم فوق صدره.

- «ابصُقْ على القيد واتْبَعني!»

ترى إلى أين تسوقه؟!

برغم الخطر المحدِق، فإن شهوة الاكتشاف أخذت بتلابيبه، فراح يسري خلفها، عابرًا سلسلةً لا حصر لها من الممرَّات والأقبية المظلمة، تتصاعد أدخنةٌ خبيثة، وتطير البومات وطيور الليل، ويواصل الدُّجَى صراخه المقيت، وأناسٌ غريبو المناظر يجولون في أقبية المساء، العالم السفلي الذي لا نراه ولا نحسُّ بوجوده، العالم الحقيقي، كمثل الجلد الذي ليس إلا غطاءً ودرعًا للحماية، تقع أثمن الأعضاء وأكثرها نفعًا تحت الأغلفة، وداخل العظام الصلبة القاسية، إنها حقيقةٌ محزنة، لكنها مثيرةٌ للفضول، منشطة للحواس، من قال أن الشر ليس جذابًا بذاته؟!

عبَر برفقتها عالَمًا كاملًا، لم يستطع عقله أن يستوعب كل ما يراه، أو يحتفظ بتسجيلات دقيقة وتصويرية لما فات أمامه من مشاهد ومناظر، من أين له بمشعوذٍ يعطيه شرابًا سحريًّا يجعله يتذكر كل هذا، ولا ينسى منه فتيلًا؟!

كم لوحةً وكم عالمًا يمكنه خلقهم من عدم، لو أنه فقط استعمل مفردات هذا الكون العجيب الذي مرَق خلاله؟! لكنه وجد نفسه أخيرًا يصعد برفقتها، يغادر مرتقيًا إلى عالمٍ فوقي. مرجٌ متسع تعمره أصنافٌ غريبة من البشر، آلهة الليل داخل سجنها المبسوط المتسع، زنزانةٌ تمتد على مساحة العالم كله، هنا اتكأت زائرته على العشب الرخص المبتلِّ، ودون تمهيد شرعت تنشِد غناءً بلغةٍ غير مفهومة، منغمسةً في طقس قومها، متجاهلةً الرجل الذي انتزعته من فراشه، وأحاطت به بسحرها، جلبته حتى هنا، لتتركه تائهًا مهجورًا، أتتخلى عنه، أم تفسح له المجال مفتوحًا ليجمع أفكاره ومعلوماته بنفسه؟!

دار «فرانثيسكو» ببصره الحائر وسطهم، وفجأة وجد نفسه ينسى ملامح المرأة، التي جاء خلفها إلى هنا، بدا له كل الرجال والنساء شبهًا واحدًا، وجهًا واحدًا، لا ملمح لذكرٍ أو أنثى، طبيعةٌ مزدوجة لمخلوقاتٍ عرفت أكثر مما يجب، حتى تلاشت الفروق الطبيعية بينهم، وانعدمت خواصُّهم المميزة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانوا يُنشِدون أهزوجةً معبرةً حزينة، بصوت خفيض، لا يفهم ضيفهم المرغَم منها حرفًا، لكن الكلمات الغامضة تنساب إلى داخل روحه، كمادةٍ كاوية، فتنكأ جروحَه وتُشعره بلهيب من الألم والتمرد، الآن عرف أن شرَّ أنواع السجن هو الحبس تحت طائلة استحالة الفكاك من قدَرٍ لا نقبله، ولا نتحمَّله، والسحر ما هو إلا محاولةٌ لكسر طوق القدَر الصلب، السحرُ تحدٍّ لإرادة الله بشكلٍ ناعم وخفيٍّ أحيانًا، وصاخبٍ مريع صريح، وكافرٍ لا يخشى صليبًا لا يُكسر، أو محاكمةً لا ترحم، في معظم الأحيان، ما قيمة الحياة إذا لم يكن متوفرًا لك خيارُ أن تقول لا؟!

(لا) مرة واحدة وإلى الأبد، وقد كان قدَر «فرانثيسكو» قاسيًا ومجردًا من الرحمة والعفو، تلاشي الحواس واستبطانُ السخط، الذي يعلن عنه دائمًا بصورة خفية وغير صريحة، هنا لا قيود ولا حدود، يمكن للجميع أن يُفشوا سخطهم وغضبهم وقلةَ رضاهم، دون أن يخافوا عقوبةً من أي نوع، في مساحةٍ منيرة بالظلمة، مكسوةٍ بغطاء ينزع عن الشمس سطوتها وغرورها، ويحيلها إلى مصدر ضوءٍ أليف، يُعطي مساحةً للحركة، لكنه لا يطرد شيطانًا ولا إنسًا، النجوم المتهاوية تتساقط هنا دون ضجيج، والدويُّ في رأس الدخيل المتلصص المخدَّر بالإثارة يقول له:

- «لقد كنا هنا من قبل.. كنا هنا من قبل!»

بداخلهِ صوتٌ يستعمل ضمير الجمع أبدًا، يحسُّ كما لو أن روحه انقسمت وتشظَّت إلى أجزاء متراكبة، كل منها يطالب بحقه في الاستقلال والوجود، كينونةٌ منفصلة، وربما اسمٌ وشكل وبلدة وعائلة، ومدبرةُ منزلٍ عجوز، ليس اسمها «مانويلا» دائمًا، لكنهم يطالبونه بأن يهبَهم أسماء، لاً يرضون بأن يشاطرونه اسمه المفروض عليه وعليهم، وهو في خانة التسميات فرخٌ مذعور وبلا خبرة، حتى لوحاتُه العزيزات لم يمنحْ واحدةً منها اسمًا نهائيًّا، ترك لقبها مشاعًا معطيًا فقط اقتراحاتٍ خجولة، فكيف يُطالب، بلا وازع من ضمير أو رحمة، بأن يعطي اسمًا ولقبًا لكل واحد من الألف جزء، الذين تناثرت روحه وانقسمت بينهم؟!

- «لقد كنا هنا من قبل!»

انكمِشْ في الدفء وأنصِتْ، فربما وجدتَ حلًّا لكل ألغازك القديمة المُمْرضة، لن يحتاج أذنين ليسمع، ولا عينين ليرى بهما، كل الحواسِّ بليدةٌ عاطلة وبلا قيمة هنا، تحسُّسُ العالَم لا يحتاج عضوًا خاملًا، معرَّضًا للتبطُّل والتخريب في أي لحظة، إنه فقط بحاجة إلى روحٍ أخرى، مستكينةٍ داخل النفس، التي يعصف بها الألم والجنون، ومخافة الموت وأخطار الحياة، روحٌ تعرف كيف تقرأ بلا شفتين، وتغني وهي لا تكاد تسمع من كل موسيقى الكون حولها نغمةً واحدة!

إن الأمر أبسطُ مما تخيَّل، البساطة ذاتها، فقد كان هؤلاء القوم الأغراب يمتدحون الخير من خلال إبراز عدوِّه، ويشعلون الضياء، ويلفتون إليه الأنظار عن طريق ضرب إظلامٍ تامٍّ حوله، شمعة وحيدة في العتمة الكاملة، ما أنفعَ ضياءها وأشدَّ حاجة السائرين في الظلام إليها حينذاك!

هؤلاء القوم الأشرار، المَوصومون بكل نقيصة، الذين تدينُهم الأسفار وتلعنهم الكنيسة، ويستحلُّ الآباء المبجَّلون دماءهم، ويقف الكهنة المغبوطون فرحين وهم يشمُّون رائحة احتراق لحمهم الحي المعلَّق على السارية، كلهم كانوا

هنا، متزاحمين حول مركزٍ مبهَمٍ، مركز مفتوح. دائرةُ اهتمامهم كانت تشمل العالم كله، يبجِّلون الوجودَ في ضآلة الحرية التي يملكها ويملكونها، يتحلَّقون مُلقين بإبصارهم نحو معبودهم الغائم، الذي يستدبر العالم ولا يلقي له بالًا، يثيرون العواصف، ويُهلكون الحرث والنسل، وينشرون الأمراض، ويخنقون الرُّضَّع في مهودهم، ويفرِّقون بين الأحبَّة، ويُجهضون الأجنَّة، ويحوِّلون الأنهار إلى دم، يفعلون كل ذلك باسمه، لكنه لا يهتم، لا يستجلب الشرُّ الدعاءَ أو يطالب بقرابينَ مبذولة، لا يأكل لحم الثيران، ولا ينتظر رائحة حرقِ شحومهم، لا يتمنى شكرًا ولا يلهج خلف الدعاء والتوسل، إنه قائمٌ متعالٍ وشديد الصَّلَف والتباعد، فقط.. افعلْ لتكن قريبًا عابدًا، ولا حاجة بك لأي قانونٍ مسلَّط فوق رقبتك، بشكل ما يتشارك الفنانون مع السحرة في هذا الولع المُمْرِض، الذي يخلِّف الألم والموت، هذا هو سبب المعاناة الأبدية، وما جيء بك الساعة إلا لترى بعينيك ما تخفيه نفسُك، ما تهفو إليه روحك وتنكره، هل كان يمكن أن يدعوك أحدهم للتلصص على سرِّ السحر، ويفكّ أمامك ألغازَ الوجود المتشابكة، وترفض؟!

يا رجل.. إنها فرصةٌ ثمينة لا تعوَّض، فمنذ نصف قرن وضعتَ تصورًا لليلةٍ كتلك، ليلة أبعد ما تكون عن تلك، تخيُّلٌ جامد، مبنيٌّ على تصورات ساذجة، لذلك جاءت خاطئةً بالكامل، لم تدرك أبدًا أنه هنا لا ليُعبد بل ليشاركهم الأنخاب، الشيطان يرفض العبادة، ويزدري المتذللين، بل يبطش بهم آخر الأمر، أما الساحرُ المُريد، الجدير باحترام الشيطان وتقديره، فيجب أن يكون أنموذجًا للتمرد والجبروت والعصيان، ضد سيده قبل كل شيء آخر، جاء الشيطان الليلة شريكًا لا سيدًا، ينغمس في طقسهم، هم من يحددون كل شيء، ورائحة الأعشاب الزكية، لا الكبريت الفواح اللاذع، تملأ الأرجاء، هنا جلس الجميع يسمعون، وأنت وسطهم، كانت خطبةً بليغةً قصيرة سمعتَها وفهمتَها، وإن لم يكن حرفٌ واحد منها معروفًا لديك، لكن الأمرَ هيِّن، فلستَ بحاجة إلى لغة لتدرك أن الكون ذاته يهمس لك، لا توجد لغةٌ في الأحلام، ولا في الموت، ولا في الحب، ولا في الخضوع للشر بفرح عظيم!

صورةٌ أثيرة لإبليس سيد الحيَّات، الربُّ الذي يزدري عابديه ويُقصيهم، إلهُ التمرد والعواصف والصراخ، ماعزٌ متمرد غاضب شبِقٌ أخرق، حيوانٌ يملك كل صفات الإنسان التي تخلى عنها، لم يعد «آدم» بشرًا منذ حط فوق الأرض، بل اختلط بعناصرها ممتزجًا بطبيعة حيوانية، الروح تدنَّست وتلطَّخت، والجسد طغى على سيدته، حابسًا إياها بين سراديبه الضيقة، لا يُطلقها إلا بالموت، أسْرٌ مرعب طويل، لا يمكن التخلص منه سوى بالفن، أو بالموت!

والسحرُ لون مخيف من الفن، فنانون من نوع خاص، إرهابيون متعالمون يروِّعون الناس بفنونهم المستفزة، الناس الجهلاء فقط، أما العارفون فهم

زبائنهم المخلصون، و»فرانثيسكو» يتمنى أن يصبح زبونًا لهم لليلة واحدة، وهم لن يحرموه من هذا الأمل!

جلس السحرةُ والساحرات، في أبهى حللهم، يضارعون بعضهم البعض في القذارة والإهمال، يدُ الجهلاء الثقيلة مطبوعةٌ على مظاهرهم البائسة، ينطبع الإنسان بفكرة الآخرين عنه، وهكذا يبدو هؤلاء السحرةُ الكبار جرابيعَ بائسين زريِّي الهيئات، لكن في عُرْفهم فإنهم يرفلون في أبهى حللٍ ليلة السبت، ليلة الحياة والموت، ساعة التكريس المرعبة، حيث ينخلع الإنسان من فئته وجنسه وطبيعته وخواصِّه، يتحول إلى مخلوقٍ لا يعرف البشر له صنفًا يدرجونه فيه، لا يهتم بآراء الآخرين عنه، يعيش بينهم متجولًا في أسماله البالية، بينما يصرم ليله رافلًا في ثياب الملوك، مستمتعًا بتزَلُّفهم إليه، تودُّد المحتاجين إلى من عنده حاجتهم، ألم يرَ بعينيه النافذتين ملوكًا، وقوَّادًا وسيداتٍ مبرَّزاتٍ، يخضعون، كالشياه المعقود حول أعناقها حبالٌ غليظة، بين يدي دجَّالين وسحرة وعرّافين، وبائعي زيوت ثعابين؟!

ياللقوة التي يتمتع بها هؤلاء، الذين تعاف الأعين إدامة النظر إلى مناظرهم الشاذة الغريبة!

كان إلههم هناك، واحدٌ منهم، لا يطلب عبادةً ولا يختبئ داخل محراب، مباشرةً أمام رعاياه، قاعدٌ وسطه، منهم وإليهم، يتحداهم بمعارفه، ويغلبونه بلهفتهم التي لا تنطفئ، إلى مزيد من التعلم، يُعطي ويأخذ، ولا يبخل بعلمه حتى على لاعنيه، لعله، في صورته الممسوخة، التي كُرِّست ليتحمل البشر التطلع إليها، يكون الشيطان هو من طبَّق الوصية «صلُّوا لأجل الذين يطردونكم!»

صلِّ من أجلي أيها الماعز الخبيث، لا تُدِر عينيك عني، ودعني أختبئ وسط أتباعك، المعمَّمين بالرجس والقذارة، وأتعلم منك لغزًا لا حلَّ له، ولا أحدَ عاقلًا يحاول حلَّه، لأن معرفة كل الأسرار يُبطل بهجة الكون، ويجعل الحياة البشرية جحيمًا، وابتلاءً موحشًا لا يطاق!

استمر الحفل وقتًا طويلًا، بينما في الحقيقة مرَّت المراسم في بضع دقائق، ووجد «فرانثيسكو» نفسه يُعاد إلى غرفته، محمولًا على أجنحة خفيَّة، محلِّقًا في سماء صامتة، يرى كل شيء من أعلى صغيرًا، قبيحًا وقذرًا، وغير جدير بالاكتراث أو التهافت حوله، تافهًا حقيرًا مثيرًا للشفقة، كل شيء هكذا، بينما بدت له جدران غرفته، المزدانة بأسراره الشخصية المظلمة، الشيء الوحيد الذي يستحق أن يعيش لأجله، ويموت لأجله أيضًا!

كانت اللوحةُ الجديدة قد بزغت من بين حجُب الأسطورة والخوف، والتلصص الخطر على أسرار لا يُستحسن أبدًا معرفتُها أو الكشف عنها، وأخطر ما في

القصة أن يحاول مخبولٌ ما أن يفشيها، ويُطلع الآخرين الأغيار الجهلاء الذين لا يستحقون، على خفاياها الهيِّنة القاصمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

(12)

إفحام الديوان المقدس!

لم يفهم ماذا يجري حوله، أو عليه، لكنه كان مَسْبِيًّا ومقيدًا، كبهيم يخافون ثورة هياجه، ومحمولًا على أكتافٍ غير ودودة، رجالٌ صلابُ الرؤوس يتناوبون في صبِّ غضبهم وقسوتهم عليه، حملوه حملًا غير مرحب، كحقيبةٍ ثقيلة ممتلئة بالأحجار، يرفعونها حينًا، ويجرُّونها حينًا، بينما يتمنَّون لو أتيحت لهم الفرصة، وبلغ تسامح أسيادهم قدرًا شططًا، فيتسنَّى لهم التخلص من شقائهم كلِّيةً، وإلقاء حمولتهم في البحر، ليحملها الموج الهادر إلى آخر حدود الدنيا، بعيدًا عن أكتافهم المرهقة وأجسادهم المكدودة.

كان يمثل ثقلًا عليهم، برغم ضآلة حجمه وخفَّة وزنه، لكنهم ساقوه بقسوة بالغة، غير مُلقين بالًا لاحتجاجه العنيف، الذي أعرب عنه بالدفع والرَّكل والترفيص، والشتم أحيانًا، حتى ألقوا به، كتلةً واحدة لا ملامح لها، في قفصٍ حديدي كبير. أخيرًا وجد نفسه قادرًا على إخراج رأسه من بين كتفيه، وإظهارَ أن له أطرافًا أربعة، كان حاملوه قد عجنوه في كتلة واحدة، حتى خال أنه لم يعد منه سوى جذعٍ هائل، ابتلع بداخله رأسه وأطرافه وحواسَّه وكل شيء، لكنه الآن راح يتحرر ببطء، مستوعبًا في نفس الوقت، وببطء، عِظمَ الورطة التي هو عالق فيها من رقبته!

في ساحةٍ واسعة نصبوا له ديوانًا للمحاسبة، دينونةٌ صغيرة لا تليق بمقامه قط، هناك كان الجمهور محتشدًا، غاضبًا ومتحفزًا، والإثارةُ- ممزوجةً بكراهيةٍ لا تفسير لها- تلمع في عيونهم. من السهل أن تجعل الدَّهماء يكرهون شيئًا ما، إنهم يحبون ويفضلون بلا مبرر، فلا أيسرَ من دفعهم إلى كراهية شيء، أو التجني عليه دون مبرر أيضًا. جنود مرتزقة في لعبة الكبار، الذين يملكون كل شيء، حتى الحق في فحص المشاعر، وفهم لماذا يُطلب منهم شيء ما، ما هي غايته؟ كلها أمور لا تُشرح أبدًا للبسطاء والعامة، فقط يُدفعون دفعًا، تحت وطيس جملة شعاراتٍ وهتافات، وارتجاليَّات فارغة وعقيمة. في الزمان القديم كانوا يهتفون (دمه علينا وعلى أولادنا. اصلُبْه)، أما الآن فقد تمَدْيَنوا وتطوَّروا، صاروا غوغاء مؤمنين، أوباشًا يعملون لأجل الرب، فيصيحون بابتهاج عظيم (دمه علينا وعلى عهدة الكنيسة. احرقه!)، كم أن الفارق بين الموقفين صغير جدًّا وتافه، وفي تلك الساحة كان غوغاءُ العالم كله، ومن كافة العصور قد اجتمعوا، رجالٌ بأسمالهم البالية، بجلودهم القذرة، وأطفالهم الذين لا تُغسل وجوههم أبدًا، والقطعُ القذرة القليلة من الملابس، التي تحصَّلوا عليها صدقةً من الأثرياء، أو عُشورًا من صناديق الكنائس، لا تكاد تغطي عظامهم المكشوفة الناتئة، أما النساء فكنَّ كالعادة أحسن منظرًا، فقيراتٌ وبائسات

لكنهن يعتنين بأنفسهن بشكل أفضل. يسرف الرجال في ذمِّ النساء وتحقيرهن، وتشاركهم معظمُ النساء أفكارَهم المزدرية، لكنهن يعوِّضن رضوخَهن المعلَن لقَيم المجتمع، وإملاءات الدين وآراء الآباء، الكارهين للنساء والجنس والأطفال والأسرة، بتدليل أنفسهن، وبذْل المزيد من الجهد ليكنَّ بخير، يغسلن وجوههن، ويرجِّلن شعورهن، وينظِّفن الملابس قدْر الطاقة، لقد رأى نساءً ينظفن وجوههن بخِرقٍ مبللة، قبل أن يذهبن لدفن أطفالهن الموتى، حتى الثَّكالى يكنَّ أفضل حالًا من الرجل الذي ماتت له عنزة واحدة!

كل هؤلاء الأراذل كانوا محتشدين في تلك الساحة التي ضاقت بهم، وعندما يتجمع هؤلاء لا ينجُم عن التقائهم خيرٌ أبدًا، فهم قد وُلدوا للفقر والشر والحاجة، ولا يتجمعون إلا على ضحية من طبقتهم، ضحيةٍ بائسة ومظلومة مثلهم، أما في نهاية الساحة فقد نُصب إيوانٌ شرقي مهيبٌ، تتصدَّره ثلاثةُ كراسيَّ مرتفعة ووثيرة، مقاعد تليق بحكَّام، لا يختصمون إلا الأبرياءَ، ولا يحكُمون إلا بالموت والهلاك، وكان «فرانثيسكو» هو متهمَّهم لهذه الساعة، فريستهم التي يتوقون لتمزيق لحمها، واستعماله على العشاء، يحب هؤلاء القوم البطش ويتيهون به فخرًا، مادام بعيدًا عن ساحتهم وحياتهم الشخصية، وقد احتل المقاعدَ الثلاث بضعٌ من الرجال، غلاظٌ شدادٌ، كحراسٍ على أبوب جهنم، بأجبُنٍ مقطَّبة، وملامحَ متجهِّمة غليظة، تفوح منهم روائحُ الدهن الثقيل، الذي تطيَّبوا به ليخفي عفونة ملابسهم التي لا تتبدل، وأجسامهم التي لا تذوق الماء إلا لمامًا، ينغمسون في القذارة الباطنة، بينما يرفلون في ثياب مترفة ويغطُّون نجسهم بالروائح المصطنعة، هبة الطبيعة للبشر وفضلها عليهم، لقد عرفت الأرضُ أن ثمةَ مخلوقٌ عفن سيدبُّ على سطحها قريبًا، فطرحت من أجله الزهورَ وزخَّات المسك، وحاولت تطهيره بالمطر الثقيل والبرد والندى، فعلت الطبيعةُ كل شيء في وسعها لكي تُصحح غلطتها، لكن خطأها كان أكبرَ من أن يتمَّ إصلاحه، خاصةً وأنه لم يكن خطأها هي في الأساس!

الوجوه المقطَّبة الثلاث، التي كلَّلتها حواجبُ ثقيلة متلاصقة، جاءوا هنا لأمر جلَلٍ، مصيبة كبيرة تستحق أن يتجمع هؤلاء الأشرارُ عليها، لقد تتبَّعوا النجوم ومضَوا خلف المذَنَّبات الساقطة، فقادتهم أقدامهم الثقيلة إلى هذه الساحة، حيث أُعدَّت محاكمةٌ هزلية لرجل لم يفعل خطأً أبدًا، كان جُرمه الوحيد أنه لم يفعل شرًّا، بقي مبرًّأً من العيب الذي كان عليه اقترافه، لم يغمس نفسه في المستنقع، ولم يرضَ بأن تعلق بذيله نجاساتٌ كثيرة، خاض فيها رسامون بلا شرفٍ غيره فيها حتى آذانهم، لا يُتَّهم دائمًا إلا الأبرياء، أشد الأبرياء براءة، بينما المجرمون الحقيقيون يتمرَّغون فوق أسرَّتهم الوثيرة، بين أحضان العشيقات والمحظيَّات، لكن مَن يمكن أن يجرَّ الملكةَ الخاسئة إلى هنا بتهمة الزنا؟ أو يقدِّم الملك إلى هذه المحكمة الشائنة بجريرة تدمير بلاده، وبيعها رخيصةً للأعداء؟!

لا، كل هذا محال، فهؤلاء القضاةُ الغلاظ لا يحاسِبون إلا الأبرياءَ، ولا يحكُمون إلا على من لا يستحقون إلا أن يُدينوا هم الآخرين، ومع ذلك فماذا فعل لكم «فرانثيسكو» المسكين لكي تدينوه؟!

كشَف زيفَكم، عرَّى عوراتكم وفضح أسراركم الشائنة، ماذا فعل لكم؟!

فعل ما كان يجب أن يفعل، بعد أن فات الأوان الذي كان يجب أن يفعله فيه، تلك هي جريمته الحقيقية، إننا نُؤاخَذ على ما لم نفعل أكثر ممَّا فعلنا بالفعل، لأن الضررَ أكبر، والخطرَ أعظم، والعقاب يحيق بالجميع، هل تنهار الأمم بسبب مجون الملوك وعبث رجال البلاط، أم بسب سكوت الرجال الفضلاء عن قول الحق في حينه؟!

تلك هي الجريمة الحقيقية، لم يُغرق الربُّ أرض مصر في الظلام، ويسلط عليها جحافل العذاب، لأنها عاندته، وسجدت لسواه من الآلهة الباطلة، بل لأنها امتنعت عن إطلاق سراح شعبه، وتخْليَته حرًّا مطرودًا في البرِّيَّة، مات كلُّ أسلاف فرعون مكرَّمين، رغم أنهم فعلوا، بينما لُعن فرعون الأخير، عدو موسى وعدو الشعب، لأنه لم يفعل وليس العكس!

قرأ البُغضَ في أعينهم، ولمح تهديدًا مخيفًا، بينما كانوا يرفعونه، مأسورًا في قفصه، ليضعوه فوق منصَّةٍ خشبية عريضة، نُصبت لتجعل المحكوم عليه، المتهم سيء الحظ، قبالةَ مجلس الديوان المقدَّس مباشرة، حيث يجلس ثلاثةٌ من القسوس، من الكهنة آباء الكنيسة، لا يعرف مراتبهم الكنسيَّة بالضبط، لكنهم كانوا ملفوفين في الأرجوان، كأباطرة روما القديمة، كان أقربُهم إلى حظيرة المتهم يبدو كرجل من رجال العهد القديم، أولئك الذين لم يكن الربُّ يتجلَّى لهم ماشيًا على قدميه، صانعًا معجزاتٍ بحق المرضى والعميان، بل كان يقرعهم بالعذاب والنار والرِّجس الأبدي، رجالٌ غلاظ لا يعرفون الرحمة، ولا تجوز معهم أي عاطفة أو شفقة، أما الأوسط فكان مثيلًا بتمام المطابقة لـ«قيافا» الملعون، بهزاله وقبحِ منظره ورثاثةِ العقل الذي يحمله، طبلٌ نحاسي فارغٌ، رنينه يفوق ترديد الجبال في نشيدها الهادر الخالد، أما الطرفُ الأيسر فقد احتله كاهنٌ خبيث المظهر والطَّويَّة، يُظهر قدرًا كاذبًا من اللين والرفق، لكنهما كانا كلِينِ ورفق الحيَّات العجائز بفرائسها، التي تريد استدراجها إلى الفخاخ المحكَمة، التي نصبتها لهم!

كانوا هنا وكانت مهمَّتهم هي محاكمته، محاكمة «فرانثيسكو» بذنبٍ لا يعرفه هو ولا هم، التلفيق كان متاحًا وبقوة، وتهييج العامة الضمانة الوحيدة لقبول حكمٍ ظالمٍ بلا بيِّنة ولا دليل، ولا اتهام مشرف مدموغ بالإثباتات أصلًا. تهلك الساحراتُ والمشعوذون والمهرطقون والموريسكيُّون، الذي يخفون عقيدتهم، ويشي بهم جيرانهم، لا يأكلون الخنزير ولا يوقِّرون الأحد، ولا

يشربون كأس القربان، كل هؤلاء يموتون بشرف، وقد عرفوا على الأقل لماذا هم هنا، أما هو، الذي أُقتيد من محبسه، الذي فرضه على نفسه، وملجئه بعيدًا عن صخبِ ونفاقِ وزيف العالم بأسره، بأي شيء يمكن أن يدينوه؟ وبأية تهمةٍ باطلة يستطيعون أن يجرُّوه إلى السارية ليُحرق حرقًا؟!

إنه يخشى الموت الآن، ليس صحيحًا أن هناك إنسانًا لا يخاف الموت، البشر كلهم جبناء أمام الموت، وهم يشاهدونه يحلِّق فوق رؤوسهم، ومع ذلك فما أشدَّ شجاعتهم قدَّامه، واستهزاءهم به، ماداموا يضمنون أنه- وحتى الآن- لا يزال بعيدًا جدًّا عنهم، أو هكذا يظنون، وقد ظن هو بنفسه الهلاك والخسران الساعة، لا أحد يحامي له أو يتصدَّى للدفاع عنه، والغوغاءُ يطالبون بدمه بشراسة، تعطُّشُهم إلى دمه مرعب ومخيف، وكأنه هو مَن أنزلهم إلى دونيَّة الفقر والحرمان، لكنه يفهم موقفهم جيدًا، إنه كبش فداء متاح بديلًا عن المجرم الحقيقي، الذي يعجزون عن وضع أيديهم عليه، كل التوقير الذي يبديه العامةُ والفقراء لذوي الشأن، والأثرياء وأصحاب السلطة، يضمر حقدًا ورغبةً جنونية في الانتقام والتشريد والتنكيل، هذه الرغبة تُفصح عن نفسها كل حين، لكنها تُقمَع بقسوة ووحشية، فيكون البديل هو تنفيذ انتقامهم فيمن يقع تحت أيديهم، تحت طائلة العقوبة الظالمة غير المستحَقَّة، كتنفيسٍ ممتاز عمَّا يعتمل في نفوسهم، حتى وإن كان المتهم المدان المعذَّب لا يدٍ له، ولا ذنب في عذابهم، وحرمانهم وجوع أطفالهم!

تلك حقيقةٌ هو يدركها، بل ويحترمها أيضًا، فليس في يديه ولا في أيديهم تغيير الكون؛ لذا بوسعهم فقط اللعب باستعمال نفس قوانينه، توجيه الظلم إلى الناحية الخطأ، وتصريف الغضب تجاه من يتوافر للتنكيل بالوكالة، وليس نحو من يستحقُّه!

كانت الشهاداتُ دامغةً، والمتهمون زورًا لا حصر لهم، كل من عرفهم في حياته تقريبًا أتوا ليُدينوه، حتى «جوزيفا بايو» نفسها و»خافيير» طفلها.. زوجته وابنه، الغريب أن المرأة حضرت بنفس مظهرها الذي عرفها عليه، حينما كانت في الرابعة عشر من عمرها، قبل أن يتخذها زوجةً له، أما ولدُها فكان رضيعًا على ذراعيها، لكنه كان يتكلم بفصاحة، وله ملامح رجل ناضج، بل وشاربٌ مكتمل أيضًا، زملاؤه في مرسم «لوثان» حضروا بدورهم، والعائلة الملكية، التي طالما خدَمها، بكامل هيئتها، والمشرَّدون الذين عطف مراتٍ كثيرة عليهم، حتى شخوص لوحاته حضروا كدليل إدانةٍ ضده. تحزَّب العالم كله واجتمع عليه، فقط، وبعد أن استمعت المحكمة إلى ألف شاهدٍ يدينه، سُمح لاثنين فقط بنفي كافة التهم المرتَّبة ضده، خادمته الطيبة «مانويلا»، وسيدة ألبا «كاتيا»، قالت الأولى كلمةً طيبةً في حقه، وهي تنشق وتجفف دموعها الغزيرة المنهالة في منديلها الرثِّ. وصفَته بالسيد الطيب، فأخذ عليها

رئيس الديوان تلك السقطة، وهتف بصوتٍ مجلجل، مستدعيًا حماقة العامة، وسرعة انسياقهم خلف الصراخ والضجيج المفتعل:

- «الربُّ وحده هو السيد!»

فأُلجمت المرأة الطيبة، وقد أرعبها هدير الجماهير المحتشدة، وتركت منصَّةَ الشهادة، وترجَّلت مغلوبةً على أمرها، لأول مرة يرى «مانويلا» القوية في صورة الجدَّة الطيبة الضعيفة، المرأة المستكينة، التي تستقوي بالآخرين، كان هوانها وضعف حُجَّتها مثيرَيْن لدهشته العظيمة، وخاف مغبَّة إخفاق شهادتها الحسنة.

أحس بطعنةٍ تصيب فؤاده، إذ يراها للمرة الأولى مغلوبةً على أمرها، مُنكَّلًا بها من قِبل هيئة لا ترحم، هيئة من الفاشلين ذوي العقول المحدودة، هزمته فكرة أن تلوم المرأة الطيبة نفسَها، إذا ما طاله حكمٌ ظالم بالحبس إلى الممات، أو الحرق حيًّا على السارية، فوقف متشبثًا بقضبان قفصه المتقاربة، التي لا تسمح له بإقحام وجهه كاملًا بين فرجاتها، وإبراز ملامحه المتأفِّفة، كإهانةٍ كافية وقاسية لهؤلاء الأراذل المجرَّدين من كل فهمٍ وعطفٍ ورحمة، صرخ مستعملًا لأول مرةٍ نبرةً لم يكتشفها أبدًا بين نبرات صوته قبلًا، وقال مُزجِيًا سخريةً مريرةً لطرف من يستحقها عن جدارة:

- «أيها الكاهن، ألم يعلِّموك أن الله يبغض الحبرَ السمين؟!»

فندَّت عن الجماهير الصاخبة نشوةٌ جماعية، كادت تنقلب إلى ضحك هيستيري يشاركون فيه كلهم عن طيب خاطر، لولا خنوعهم أمام سوط البابا، ورهبة ديوان التفتيش المقدَّس، غير أن القضاة الثلاث تطلَّعوا إلى بعضهم متسائلين، بنظراتهم الساخطة الشريرة، عمَّن يكون الحبر السمين المقصود من بينهم؟!

كان الأمر في حد ذاته مثيرًا للسخرية، وأخذًا بمجامع الحكمة المُدَّعاة، أعطاه هؤلاء، الذين تفوح من جلودهم رائحة الكذب والتلفيق، فرصةً لمناقشة التهم الموجَّهة ضده وتفنيدها، إنْ أمكنه ذلك، هتف رئيس المجمع، الذي يحاكي «قيافا» في سَمته وهيئته وأسلوب استجوابه الشائن:

- «أيها السيد المدعو «فرانثيسكو ديل جويا لوستينيس» إنك متهم بالتجديف، وتصوير الشر ابتداءً اعتراضًا على حكمة الرب وتدابيره الخلاصية الفائقة!»

همَّ «جويا» بالاحتجاج على هذه التهم الغريبة المفتراة، لكن المحقق مضى مستشعرًا بوهمٍ يستحق الشفقة، بالظفر، وركونٍ إلى حلاوة الفوز المسبَق المبين:

- «إنك أيضًا مدانٌ بتصوير الشر في صورة زاهية، ونعْت الشيطان بالنعوت الطيبة، وعدم لعنه بما يكفي كمسبِّبٍ وحيد لكافة آلامك ومصائبك!»

تعجَّب المتهم من جملة التهم الغريبة هذه، وهتف ساخرًا وبقوة من أصل التفكير الذي رتب قائمة الجنايات المتهافتة تلك:

- «إنك لا تفهم يا سيدي، لا تفهمون كلكم، لقد حاولتُ أن أجعل فني قربانًا يوصلني إلى إلهي، الذي لم أصل إليه بطرقكم البليدة الملتوية!»

ثم أردف دون أن يبتلع ريقه:

- «أنتم لا تفهمون أن الحبسَ في جوفِ وحشٍ ثمانين عامًا هو لعنة، وليس بمعجزة، حتى إن لفَظَني التنِّين بعدها حيًّا ومعافًى!»

رفع الغوغاء أصواتهم حتى تزلزلت جنبات الساحة، لكن المُدان بلا خطيئة، المتهم بلا بيِّنة، صرخ فأسمَعهم أنينه يقينًا قاتلًا لأفكارهم المهترئة المشوَّشة، رغم ضجَّتهم الوحشية المفتعلة:

- «إنكم لا تفهمون، فإذا لم يكن لفنِّنا روحٌ وحياة، إذا لم نكن قادرين على الخلق كآلهةٍ صغيرة مستقلة؛ فباطلٌ فنُّنا، وباطل أيضًا إيمانكم المصنوع!»

فمزَّق رئيس المجمع ثيابه، بينما راح المفتشون يصرخون، والجمهور الغاضب يظاهر إعلاناتهم الحاقدة بهديرٍ ساخط يرجُّ الميدان رجًّا:

- «ما حاجتنا إلى شهود بعد؟ لقد جدَّف!»

وراحت الحناجر الجاهلة تردِّد دون فرصةٍ لالتقاط الأنفاس:

- «لقد جدف، لقد جدف، احرقه!»

غير أن «جويا» هتف محاولًا للمرة الثانية كسر طوق المحاكمة من طرفٍ واحد، الذي يطبق على رقبته:

- «لقد عشتُ ثمانين عامًا أيها الحبر، لكنني أستطيع أن أؤكد لك أن قدميَّ لم تتورَّطا في هذا العالم، لذلك فإنني عندما أغادره فلن أكون قد خسرتُ شيئا!»

صادقًا في حرارة موقفه، كاذبًا في ادعائه، فقد كانت مبادلةً غير عادلة تمامًا، ولا منطقيةً حتى، أعلن «جويا» أخيرًا وصيَّته النهائية، واختار نعيَ شاهدة قبره بنفسه، وبفرح عظيم، لكن سيدة «ألبا» كانت قد سئمت تلك المناقشة السفسطائية من جانب واحد، مع هؤلاء الجهلاء الغلاظ الشداد، فهتفت مجيبةً على تهافت دعوى عشيقها الغابر العنيد، رافعةً صوتها لئلَّا يكون لصراخ الدهماء الغاضب من وسيلةٍ لحجب صوتها، أو قمع جوابها الحاسم:

- « لكن العالم قد تورط فيك يا «فرانثيسكو»، لذا فإنك عندما تغادر فسيخسر هو، لا أنت، إنها واحدةٌ من أكثر الصفقات عدلًا في هذا العالم غير العادل بفطرته!»

كان جوابها بالمثل يحوي تجديفًا صريحًا، وخطيرًا، لكنها لم تمثُل أمام تلك المحكمة كمتهمة، فلا يمكن جرُّ سيدة «ألبا» إلى الديوان لمقاضاتها، بل كشاهدةِ عدل، وسرعان ما جاء دورها المحدَّد، الذي استُدعيَت من أجله، وطُلبت للشهادة، كشاهدة نفيٍ ثانية وأخيرة، والأخيرة وحدها كانت الحجَّةَ الدامغة، أفصحت فعبَّرت وقالت ما تاق دومًا إلى أن يسمعه منها، كل هذا السحر الذي ينساب من بين شفتيها، لا خوف ولا حزن، عندما تحبك امرأةٌ كـ»كاتيا»، فإنها تستطيع أن تجابِهَ العالم كله، وتختصمه وتنتصر عليه، لأجلك، عظيم هو حب المرأة، منذ أن تكون طفلةً تتعلق بعنقك، حتى تصبح أمًّا تحتويك بين ذراعيها، وتحميك بظَلفها ونابها ولسانها المُشرَع، كلبؤة البراري تطارد الغزلان، وتقصم أعناقها، وتأتي بها لتقدمها كعشاءٍ هيِّنٍ ليِّن لأشبالها الجائعة، ووحيدٌ جدًّا هو الرجل الذي لا يجد امرأةً تبسط حمايتها عليه. غلبت «كاتيا «شهادة كل ضدٍّ ونقيض، وتغلَّبت بحُججها الباهرة على الأدلة الزائفة التي بسطها أعداؤه، كل هؤلاء الذين تألَّبوا ضده غُلبوا، وتذوقوا مرارة الهزيمة والخذلان، وكسابقةٍ وحيدة في تاريخ هذه المحكمة الوحشي شمل «فرانثيسكو» عفوٌ بلا شروط، أُطلق حرًّا لأن امرأةً معيَّنة أحبَّته يومًا ما، وجاءت الآن لتصرِّح بحبها، وتقدم دليلًا دامغًا عليه!

لا ينقذنا سوى الحب والتجاهل، حب الآخرين، وتجاهل أخطائهم اليسيرة بحقِّنا، كم هجرَته «كاتيا» وجفَته وابتعدت عنه، وحافظت على مسافة صغيرة، لكنَّ قطْعها كان يستغرق ألف عام، بينهما، لكن الساعة تغيَّر كل شيء!

انسحب القضاة الأجلاف وسط تهليل الجمهور، وصراخه المؤيد، بعد أن أعلنوا حكمهم بالبراءة، وأعفَوه حتى من عقوبة التجريس اليسيرة المحبَّبة للدَّهماء، تُركت منصةُ القضاء خاليةً، وأخرجوه من قفصه حرًّا، وكأنه قضى بداخله عمرًا كاملًا، قدموه لـ»كاتيا» كجائزةٍ نفيسة، كتحفةٍ دفَعت لقاءها مالًا وفيرًا، فاستحقت أن تحملها وتتأملها بحرص وافتتان، وخلَّوا سبيلهما ليذهبا، لينطلقا حُرَّين، محلولَيْن من كل قيد، «فرانثيسكو» تحديدًا فُكَّت أصفاده الغليظة، لكنه أحس قيدًا ناعمًا لينًا يُطبق على قدميه، فيكاد يتعثر ويسقط على وجهه من حزِّه الهيِّن، كان هذا القيد هو العرفان، الذي وجب عليه الآن أن يُسديَه بقية عمره نحوها، كان مدينًا لها مرة، فأصبح مدينًا الآن مرتين، عليه أن يعيش عمرًا إضافيًّا فوق عمره الحقيقي الذي يكاد ينفد وينقضي، ليفيَها حقها من الحب والإخلاص والثناء!

غير أن المرأة لم تكن طامعةً في شيء من كل هذا، بل فرحةً بنجاته، التي كانت هي سببًا مباشرًا لها. حادثتْه بجد، بينما كانا ينزلان سلَّم منصَّة القضاء، فيما كان الظلام والسكون يغمران الميدان المقفر، الذي هرب المحتشدون فيه سريعًا، من حولهما. قالت له غير لائمةٍ أو عاتبة:

- «ألا تخاف الخطيئة يا جويا؟!»

لو أنها سألته جادَّةً كان ليقول لها:

- «إن خطايانا تنال المغفرة حينما نرسمها، عندما نعاينها دون خوف أو خزي، أتعرفين لماذا؟ لأننا نحن من نمنح المغفرة.. لأننا نحن المغفرة يا كونتيس!»

بيْد أنها أشاحت بوجهها عنه صامتة، وراحت تمسح الميدان الشاسع الخالي، الذي هرب شاغلوه، وفرَّ قضاتُه الدائنون، لكن بقي فيه كاهنٌ واحد، قائمًا يصلي، بلا هيكل ولا تقدمة، يلحُّ على إلهه، في وصلة تزلُّفٍ لم تجد جوابًا، إلا الصمت المطبق، راقبته «كاتيا» للحظات، متفجعةً من منظر الختام الذي يتبدَّى صريحًا أمامها، ثم رفعت أصبعًا رقيقًا، مصوِّبةً أناملها النحيلة جهة الراهب، الذي يلحُّ على إلهه دون جدوى، بعد أن فرَّ مريدوه كحُمُرٍ مستنفِرة، تاركين إياه يجابه السماء وحيدًا منبوذًا، وهتفت مستنكرةً بيقين كامل، وهدوء يجلِّل عينيها النجلاوين:

- «هل تراه؟ هذا الكاهن العتيق، يصلي وحيدًا في الخلاء، وحيدًا بلا مريدين، هرب المصلُّون، واعتصم المؤمنون بالجدران لتحميهم، لم يُهرعوا إلى ربهم لأنهم يعرفون أنه ما من شيء يسترجونه منه! هل تراه؟ الكاهن الذي لفَّ عنقه بحبل الإيمان مجدولًا من أرواح، وأنَّاتٍ، وخداعٍ، وضحايا لا حصر لهم، دهستْهم سنابكُ أسفاره الملفَّقة؟! هل تراه؟ إنه خاشع لقوة يعرف أنها لن تحميه، لن تقدر أن تحميه، هرب المؤمنون وفشا الإلحاد بينهم، ليس هناك من شيء، ليس هناك من إله يلجأون إليه، أما هو فسيبقى وحيدًا، بلا رعيَّة، يناجي ولا يُسمَع له، لأنه يظن أنَّ مؤمنيه قد تركوه، لكنه لا يعرف أن ربه قد تركه قبلهم، ومنذ زمن بعيد!»

فكرَّر «فرانثيسكو» في نفسه، مأخوذًا بمنطقها، وقدرتها على فلسفة حتى أشدِّ المواقف سطحية، وخلوًّا من المعنى:

- «فليطلب المغفرة منَّا.. فنحن المغفرة يا كونتيس!»

لكن هزلًا كان سؤالك، وقطعًا للمشوار العسير، لذا بقي جوابه معلقًا في حلقه، ولمَّا أدرك أنه يشين نجواه الظافرة، بالخوض في أمورٍ مهملة ومقصيَّة ولا يهتم بها أحد، ابتلع تعليله الحسير بيُسرٍ، وبدون شربة ماء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(13)

رجال يفتشون عن اللعنة!

رأسٌ غارق في الظلام لرجلٍ لم تعد عيناه تميِّزان النور، ظلمةٌ تغشى حواسَّه الخمس، فلم يعد لإغلاق أذنيه القسري من فائدة، أمام حواسَّ أخرى خامدةٍ بإراداتها، العالم القاتم الذي صنعه داخل رأسه، انسابت خيوط العنكبوت وشِباك الحيَّات الخالدة من داخله، لتغطي العالم الحقيقي المحسوس من حوله، بضفيرةٍ مرعبة من الشِّراك الخداعية الزائفة، الوهم الذي خلقه واختاره وطنًا له، بديلًا عن وطن من أرض وسماء، ونظام حكمٍ صارم وشعب مديد، لا حول له ولا قوة، وطنٌ لم تعد تربطه به أية صلة، خلاً أنه يقيم على أرضه، منفصلًا عنه وعن نفسه، غربةٌ مطلقة وسط سلاسلَ حديدية، كلٌّ منها يشدُّك إلى ناحية، قيودٌ واهية، وإن كانت قوتها ساحقةً، لكن ولا واحدة منها قادرةٌ على جلبك مذعنًا إلى الجهة التي تنتمي إليها، وكلها تقدر فقط على أن تبقيك ممزَّقًا مسحوقًا متنازعًا بين كل جهة، وكل طرف وكل ميدان، من هذا الظلام المطبق المخيف انبثق نورٌ مفاجئ، نجمٌ هاوٍ يضيء السماء، قبل أن يسقط ويحترق ويتلاشى بصيص نوره، ملاكٌ خاطئٌ ملعون يقع على الأرض، فتسقط أجنحته، ليستعملها البشر كمراوح هائلة لليد، نكتةٌ طريفة، ودعابة غاية في القبح والبذاءة، تبجُّح مطلق ضد قوى هذا العالم الشريرة المتضاربة، مَن خلَق كلَّ هذا الشر والعدم والموت والظلام والبرودة؟ ولماذا؟!

كيف تسلل الموت إلى العالم؟ وكيف يمكننا أن ندوس على الأرض بأريحيَّة ونحن نعرف أننا- في مستقبل ليس ببعيد- سنصبح جزءًا من الأديم المُداس، ويطأ بقايانا آخرون كما مشينا بأقدامٍ ثقيلة، واستهتارٍ كامل، فوق ركام مَن كانوا قبلنا، الطاولة التي تقلب نفسها كل حين، لترمي بمن فوقها وترذلهم تحتها، لعبةٌ دوَّارة مخيفة وتافهة وموجعة، الأسرار المطلقة ليس مسموح للبشر بمعرفتها؛ لأنهم لن يحتملوا ثقلها، يقول الكهنة إن الله تلطَّف بنا إذ لم يكشف لنا كل شيء، وحجب عنَّا أوجاع الماضي ومخاوف المستقبل، وحزازاتِ الشعوب، التي تعيش بيننا وبينهم حجابٌ من صمت، وتباعُدٌ وجهل، صحارٍ شاسعةٌ وقفار، ومسطحاتٌ هائلة تفصلنا عن حياتهم الآثمة، لكن ماذا عن إثمنا نحن أيها الكاهن؟ ماذا عن المعرفة التي أهديَت لنا لتزيد حياتنا بؤسًا وسوءًا؟!

وهل كان من الأفضل أن نبقى جهلاءَ وعَمِين وغشيمي العقل وأمِّيين؟ ربما كان ذلك خيرًا لنا، فالمعرفة في النهاية لا تجلب سوى الشقاء، والحريق الذي يشتعل في الروح، ولا ينطفئ أبدًا. آن أوانُ إعلان هذه الحقيقة، أن نعرف ليست دائمًا منحةً أو هبةً، فقد تكون مجرد نقمةٍ، نقمة مرعبة نظل ندفعِ ثمنها

عمرنا كله، دون أن نؤدي ما علينا من ديون وفوائد متراكبة مستحقَّة، ما أسخف التطلعَ إلى استجلاء الأسرار المخفيَّة!

كان السيد الذي تُرك وحده في خوفه يشعر بالدهشة، إذ هؤلاء الأفاضل المغيَّبون وقد تجمَّعوا حول رقيمٍ ملعون، يستكشفون أسراره، يتكأكأون على حتفهم، يفتحون سِفرًا مرجومًا يخرج منه هلاكهم وفناء أعمارهم، البحث المصرُّ الضاري عن الشقاء، الموت الذي نستجديه ونشتريه بأموالنا وذهبِنا وكنوزنا المدَّخرة، ونتسوَّله بدموعنا وآهاتنا وتوسُّلاتنا المهينة، اللعنة التي نشتريها مُغلِين إياها الثمن، وندفع مقابلها كلَّ ما اجتهدنا عمرنا لنكنزه، علام يتلصص هؤلاء الحمقى؟!

طوبى للذي يقرأ وللذين يسمعون أقوال النبوة، ويحفظون ما هو مكتوب فيها، لأن الوقت قريب، ولكن طوبى أعظم لمن لم يقرأ ولم يسمع ولم يعرف، لمن يرتع في نعيم الجهل، فلن يُدينه ربٌّ ولا إنسان، لقد أدانت البشرية نفسَها بالمعرفة وليس بالجهل، طوبى للجهلاء فهم يرثون الفردوس دون شقاءٍ أو عناء. الجهلُ نعمة لمن لم يجرب شقاء المعرفة وألمها العظيم. سبعُ كواكب مظلمة عن يميني، ونجوم معتمة عن اليسار، كنت ميتًا والآن أنا حي، إلى أبد الآبدين أتعذب بنفسٍ طويل ولا خلاص لي في أرض ولا في سماء، ظلمةٌ كاملة أمرُّ خلالها، وقبرٌ ضيق يُطبق على أنفاسي، تعتصرني جدرانُ بيتي حتى تكاد تزهق روحي، ثم تلفظني محطَّمَ الأضلاع مكسورَ الفؤاد، كل عمري مطويٌّ خلفي، خفيٌّ عني كل ما دُوِّن فيه، ومستقبلٌ لا أعلم عدد سنيه أمامي مضمَرٌ ومنكمش على نفسه، لا يُظهِر لي من معالمه شيئًا، بقاءٌ كالعدم ووجود مرعب. إننا نشقى بمواهبنا الخاصة، فضائلنا تقودنا إلى الجنون، ونختار سجننا بأريحيَّةٍ واثقين كلَّ الثقة في أنه الخيار المناسب، القبر الذي نشيِّده وسط المروج المعشوشبة، يبدو لنا الموت في حضن الطبيعة والنور بهجةً للروح وسكنًا للنفس، لكن الروح مثقلةٌ وسقيمة، الروح مجروحةٌ ومثقوبة، تتهاوى كريشةٍ خفيفة تطيِّرها الريح، لو كانت روحك أثقلَ لكانت أرسخ، وأشدَّ تشبثًا بعرينها وبالحياة. إنَّ الأسد يظل يقاتل من أجل البقاء حتى اللحظة الأخيرة من عمره، بينما يجزُّ الرجل المحارب عنقه بسيفه إذا ما خسرَ معركة واحدة!

هذه لعبةٌ قذرة، في هذا البيت عليَّ أن أقامر بمصيري، وألهو بكل الاحتمالات، وهؤلاء الحمقى المحلولون من كل قيد يتلصصون على هلاكهم، متلاصقين شغوفين، ثلَّةٌ من المأفونين، عبيدٌ لأزمانهم يعتقدون أنْ لا خطر يتهدَّدهم من فتح الأسفار المغلَقة، والأضابير التي كساها العفن والموت بغشاء أخضر، ماذا كان مصير القديس الذي تجسس على أسرار السماء؟!

رأى شرًّا مهولًا، رؤيا تقضُّ المضاجع، وتُلهب الروح بالرعب الدائم، ذعرٌ سيبقى محفوظًا في الكتب، وينتقل من جيل إلى جيل، أيها الراهب القديس المتغرِّب ماذا جنيت من فضولك؟!

حمَّلَتنا بلعنة كنَّا في غنًى عنها، لولا أن الربَّ حدَّد طريقًا للخلاص لكان الخلاص مجانيًّا للجميع، لولا أن فتشنا الكتب لما عرفنا أننا أشقياءُ وتعساء، أمواتٌ أبناءُ أموات، هكذا يقول «فرانثيسكو»: الكل باطل، وحتى حبسةُ روحي في هذا المعتزل المظلم القاسي هي باطل أيضًا، ليس من العدل أن نعاني بلا طائلٍ في عالمٍ لم نختر الوجود فيه، أيها الربُّ السيد أؤكد لك أن «جراسيا نافاروا» لم تسألني رأيي أبدًا قبل أن تحمل بي، وأن «خوسيه جويا» لم يناقشني قبل أن يقذف بي إلى هذا العالم، على غير إرادةٍ أو خيار مني!

لكنني مجرم ومُدان بدوري، فقد صنعت شخوصًا من عدم، من طلاء وألوان لا من طين، صنعتُ بدل «آدم» واحد شقي عشراتٍ منه، أشد شقاءً وأعظم ديمومةً لعذابهم، «آدم» مات ولحقت به جميعُ ذريته، لكن مَن يملك الجرأة لكي يُجهز على هؤلاء التعساء، الذين حبستُهم فوق جدران منزلي؟!

أيأتي يوم ويُدينونني فيه ويتهمونني بكل تهمة رميتُ بها أمي وأبي، وأسرتي، ومعلمي، وسادة إسبانيا، ونبلاء البلاد، والملك الغشوم والسلالة المريضة، التي تستحق اللعنة والدينونة الدائمة؟! كل هؤلاء لي ديونٌ مستحقَّةٌ في رقابهم، لكن ماذا عن ديوني المركَّبة المهولة والمتراكمة خلفي، ذيلٌ طويل من الويل الذي صنعته بنفسي، وحكمتُ به على آخرين، كم هو مؤلم أن تعرف أنك أنت أيها الإنسان الشقي، غالبًا ما تكون بدورك مصدرًا مستمرًّا لشقاء الآخرين وعذابهم!

وهؤلاء المغفَّلون، في هذه الساعة القاتمة، يفتحون السِّفر غيرَ عالمين بأخطار التجسس على ما لم يكن للإنسان أبدًا أن يعرفه، لا حقَّ لنا في المعرفة، فقد كانت مطالبتنا بالمعرفة سببًا في هلاكنا وتردِّينا، زهرة بنت الصباح سقط بسبب الغرور الزائف، لكن الذنب العظيم هو ذنبنا نحن في الأساس، فنحن مَن كنَّا عثرةً للشيطان، نحن مَن أوقعناه في شبكة، والآن هو سبب عثرتنا، وفخِّنا الفاغر فاه دائمًا، الشيطان هنا أيضًا، يتسلَّى، يلقي النَّرد، يلعب، أيُّ روح من أرواحك البائسة ستكون من نصيبه يا «فرانثيسكو»؟!

هذان الغِرَّان اللذان يتبارزان حتى الموت بلا سبب؟ أم تلك الفاتنةُ التي تشيح بوجهها عن القبر، بينما تضمُّه بكل حواسِّها ووقفتها المتثنِّية الشبِقة؟ محبةُ الموت التي ترفرف على كل هؤلاء، لعنتُهم التي تسربت إلى روحي، هل أُطلق كلبي البائس، الغارق في ظلمة الماء الآسن، ليصطاد لي شيطاني ويلبسه في سلسلة؟!

أيوجد واحدٌ من كل هؤلاء يحمل حمقًا وترفًا لتقبُّل حقيقة الشقاء كمثل هؤلاء الرُّعْن،الذين يفتحون كتاب عذابهم بعيون متشوقة؟!

مناظرهم مُزْرية، وجوههم قميئة، ملامحهم مُغْثية، مخاوفهم مدسوسة ومُتحفَّظ عليها بداخلهم، لكنها تفضحهم خلال نظراتهم الصريحة، ليس من المجدي حبسُ خوفك وإخفاؤه، لأن الخوف هو الغريزة الوحيدة التي تسوق الإنسان، ولا يقدر هو على سوقها، حتى «أيوب» البارُّ خاف وشكَّ وتوجَّع، وطلب الرحمة ورفْع البلاء، حتى «المسيح» صرخ متألمًا فوق خشبته، خطَّته التي رسمها بيديه لم تمنع أوجاع الموت، ورعب الهلاك من الانفراد به!

للموت سلطةٌ حتى على الأرباب الخالدة، أكل الإله الوثنيُّ أولاده ليحمي نفسه من الموت، أمات بذرته ليحيا هو، من قال إن الإنسان ليس شديد الجبن والأنانية؟!

الأنانية أن تُعثِر غيرَك لتنال أنت نعيمَ المعرفة المجحف، غيرَ العادل ولا المتوازن، كم رجلًا حرًّا غافلًا سيهلك لأن رجالًا أغبياء قرأوا كتابًا، أو رسموا لوحةً، أو كشفوا سرًّا ما في الأرض أو في السماء كمثل هؤلاء؟! اللعنةُ على هؤلاء الذين خلقتَهم بيديك، سوَّد وجوههم وأعتَم أعينهم، وطلى بالقتامة وجهَي الرجلين اللذين يقفان في الخلف، الشاهدين الذين لم يتدخلا ليمنعا متصدِّري المشهد من فتح السِّفر وقراءة ما فيه. إن الشهود الصامتين، الذين لم ينالوا نصيبًا من الإثم، أولئك كثيرًا ما يكونون أشدَّ جريرةً ممن اقترفوا الذنب بأيديهم، وهكذا تكون أنت، أيها السيد المتعطل، أشدَّ وزرًا وإثمًا من شخوصك، الذين صنعتَهم بيديك، لماذا خلقتَ عالمًا لا تعرف كيف تديره؟!

كيف يمكنك أن تحارب كل هذا الرعب الذي لفظتَه، وصوَّرته على جدران بيتك؟! كيف بوسعك أن تعتذر منهم وتعتذر لنفسك في وقت واحد؟!

إن خطاياك وأخطاءك تتضخَّم بصورة مرعبة يا رجلَ العلَّات، تلتهم المخاوف وتنمو باطِّراد كوحشٍ مصنوع من الهلام، أي سلاح ناجع يمكنه اختراق الهلام وتشتيته؟!

لا تملك سلاحًا ولا روحًا للقتال، إنك فنان ولستَ مقاتلًا، فنان بائس تخلى عن مرسمه وتاريخه كله، ليأتي وينزوي، مختبئًا، كلص يهرب من جريرته، بين هذه الجدران المعطَّلة، التي أخرج عليها كلَّ مخاوفه وأحزان روحه، هل هذا هو المصير الذي طالما اشتهاه وعمل من أجله؟!

نهايةٌ هزيلة لرحلة طويلة وعظيمة، ماضٍ جليل يشدُّك إلى الخلف، ومستقبلٌ مظلم لا تظهر له أي معالم، وبينهما حاضرٌ مخيف يحاصرك ويحتويك ويتحفَّظ عليك، ويُطبق عليك ويحبسك بداخله، لقد أطلق الحوتُ «يونان» بعد ثلاثة

أيام، وبقي الربَّ ميتًا في قبره ثلاث ليالٍ، لكنك ها هنا منذ ثلاث سنوات، عددتها عدًّا، ولم ينته شقاؤك، ولم يُخلِّك الهلام الذي ابتلعك داخله، أو يطلقك حرًّا!

ربما لأنك لست نبيًّا ولا أقنومًا حيًّا، أو لأن آثامك أكبر من أن يتم غفرانها والتعويض عنها، أو ربما لأن شخوصك الحمقى ورَّطوك في أفكار لم ترسمها، ولم تفكر فيها أبدًا. ترى.. هل انبعث روح شقيٌّ من داخلك راح يسوِّد الجدران بهذه المناظر والأشكال المرعبة؟!

لماذا يبدو لك كل شيء غريبًا عنك، نافرًا ومتفلِّتًا، كمخلوقٍ أملطَ لزج مقزِّز؟! وكأنك لم ترسمه، وكأن له خالقًا وصانعًا غيرك، هل لك روحان، واحدةٌ لازمَتْك طوال سنيك الأولى المنصرمة، وأخرى لم تفصح عن وجودها إلا الآن، بعد أن تلاشت قوة روحك الأولى، وعلاها الصدأ وتمزقت كلَّ ممزَّق، الثوب الذي حاولتَ رتْقَه قد التفَّ عليك وخنقك داخله، المشدُّ الضيق يكتم أنفاس الحسناء، والعالم الضيق يجعل الفنان يموت صبرًا، وعلى دفعات بعد عذاب طويل وتدريجي ومرعب!

فتحتَ السِّفرَ السابع؟ صبرًا لك وتعسًا أيها الأخرق، خمسة من الحمقى في منظر واحد، متجسِّدين فوق جداري، جئتُ أنا بهم إلى العدم، صنعتُهم ثم فرضتُ عليهم قواعدي، وعندما خالفوني وأكلوا من شجرة حرمتُها عليهم، لعنتُهم ورميتُ بهم في بيئة غير ودودة، علام كان كل هذا منذ البداية؟ ولم نصنع مآسينا وضلالاتنا بأيدينا، ثم نتهمها ونصرخ متألمين من حرِّها، وإثخانها الجراح فينا؟!

يا له من غريرٍ هذا الذي يصدِّق خواطره الهائجة، أو يركن إليها، علينا أن نقاومَ عقولنا، نحاربَ شهواتنا، نصدَّ كل حواسنا ونحجِّمها ولا ندعها تتسلط علينا، إنها نفس الكارثة التي قادتك إلى هنا!

أغلِقوا الأسفار، لا تفتشوا الكتب، أرسلوا إلى الكنائس السبع، سبعُ تعزياتٍ لم تصل أبدًا، رسائلُ مميتة ألقاها حامل البريد في المحيط، حرَّر العالم من شرورها، سبعُ رسائلَ قاتلة، مليئةٌ بالطاعون والموت والخراب، لعناتٌ لا يمكن احتواءُ نتائجها، الصندوق الملعون الذي فتحته «بندورا» دون تحرُّز، الرجال الخمسة صنعوا شرًّا مماثلًا، لا تفتشوا الكتب، ألقُوها مغلقةً على لعناتها في الماء العميق، ليبتلعها البحر ويمحو شرَّها، النبي يصرخ في البرِّيَّة ولا أحد يسمعه، وأنت تصرخ هنا ولا أحد يسمعك، فقد اخترتَ منعزلًا بعيدًا جدًّا عن الناس، اخترتَ منفاك بيديك، جبانٌ وأنت تعترف بجبنك، لكن أحيانًا ما يكون الجبن هو الطريقة الوحيدة للنجاة، ليس عيبًا أن ينسحب الغزال مبتعدًا أمام السبع، أن يقفز مستعملًا كل طرقه لتخليص نفسه، حتى وإن كانت

المواجهةُ غيرَ متوازنة والقدراتُ غير عادلة تمامًا، لا ظلف ولا ناب، لكنْ لديك ساقان مرنتان، لديك قوًى لا يملكها الأسد، فهو أقوى منك ومن كل نسلك وسلالتك وأسلافك، بينما أنت أسرع منه وأشدُّ عزمًا، لديك سبب قوي للهروب، إنك أسرع منه ومن نسله ومن أسلافه، اركُض أيها الغزال مبتعدًا، اركض ولا تنظر خلفك، فمن ينظرون خلفهم تُفتح الأسفارُ الملعونة، وتقذف عليهم معلوماتِها وتربُّصاتها المخيفة، من ينظرون خلفهم ينضمُّون إلى طابور المعذبين، ويتحولون إلى أعمدة من الملح!

سوادٌ فوق وجوههم، ولْتُعْمَ عيونهم بغشاء من ظلام وغفلة وغباء، وليكن مصيرهم تمامًا كمثل مصير زوجة لوط المتعدية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

(14)

كما لم يولد مثله.. كما لم يولد مثلها!

في ليلة مدلهمَّة الظلام، وبينما كان العالم المُستحدَث، الذي يعطي لأدوائه العتيقة أسماءً جديدةً وعناوينَ براقة، يموج في مخاض عسير، مخاضٍ عقيمٍ لا يتخلَّف عن وجعه وصرخاته، ودمائه المهدَرة الساخنةَ أيُّ حياة جديدة لائقة، وصل مخاضُ الفنان الخاصُّ إلى نهايته، لقد جرَّب الولادة الخصبة، وأنتج ألوفًا من الأعمال الجديرة بأن يراها كل إنسانٍ يسير على هذه الأرض، وعانى الإجهاض العقيم، الذي لا يترك وراءه سوى مرارة نفسٍ وذكرياتٍ سيئة، ومَمالِيصَ مشوَّهة مبتسَرة، وعرف ألمَ الحالتين، ذاق السعادة وعرف المرارة التي تخلِّفها في الحلوق، عقب نفادها واختفائها، وجرَّب البؤسَ واليأس والحزن، وعلم كيف تُميت الروح، وتُهيل على البصر التراب، هذه المزرعة التي دَفن نفسه فيها حيًّا، خارجًا حيث كان ثمَّة عالمٌ جديدٌ يولد، لا رغبة لديه إطلاقًا في المرور بتجاربَ مروِّعةٍ جديدة فيه، وعالمٌ آخر عتيقٌ ومتعفِّن يتهاوى معترفًا بحقيقة الزمن الجبارة، سئم منه ومن معاينة مآسيه التي لا تنتهي، كيف يمكن للرجل الهروب من ذاته ومن نفسه التي تلازمه؟!

لم ينفعه كل الاعتراف المرهق الذي مارسه على هذه الجدران الصامتة، كهَنتُه الصابرون الذين استمعوا إلى مخاوفه وأوجاعه وخطاياه وآثامه، وتحفَّظوا عليها، وعدوه بالصمت والستر والاختباء، لن يذيعوا سرَّه لأحد، وسوف تتلاشى اعترافاته المسجَّلة مع مرور الأيام، كلُّ ساعة تمرُّ على هذه الخربشات، التي تصرخ جنونًا وهلوسةً، ستزيل طبقةً من مخاوفه وآلامه، وساعاتِ وحدته القاسية، سيتبدَّد كل ذلك بمجرد أن يدور الزمن دورةً واحدة، أو دورتين، ملقيًا بثقله الجسيم على هذا البيت، الذي يطلُّ من فوق التلال، كهاويةٍ مشرعةٍ متباهية، نصعد إليها لاهثين، بدلًا من أن نسقط لأسفل متدحرجين بفرحٍ نحو حتفِنا، سيتلاشى كل شيء، وتستردُّ الجدرانُ الأمينة وديعتَها، تتشرَّب ألوانه ببطء، وتُبهت صرخاتِه، وتكتم كلَّ ما استمعت إليه من اعترافاته. لم يكن البابا في روما لينصت إليه بأفضل منها، لم يكن كاهنٌ أو نبيٌّ ليدعَ له حرية التنفيس عمَّا يعتمل في نفسه مثلها، لقد أدَّت مهمتها على خير وجه، لكن المنزل ضاق بكل هذا البؤس الذي نثره على حوائطه، لم يعد المجال الحيُّ يتحمَّله هو وصرخاته المسجَّلة خدوشًا مؤلمةً، حُفرت بكسر الأظافر، فوق الجدران معًا، إما أن تبقى وتمحو كل هذه الكآبة المرعبة، وإما أن تنحاز لسجلِّك غير السوي، وتذهب مخلِّفًا تراثًا عقيمًا ومشوَّهًا ومرعبًا خلفك!

إن الخيار واضح، عسير برغم يُسْره الظاهري، لديه منازلُ أخرى، عنده إسبانيا كلها بيتًا وسكنًا مضيافًا، لكن إسبانيا لم تعد وطنًا، وبالتالي لم تعد منزلًا، فالوطن منزلٌ، والمنزل وطن، وعندما يخسر إحدى الخصلتين لا يصبح سوى عبءٍ، ومكرهةٍ عظيمة يحتملها المرء صابرًا، يقضم المرَّ صبرًا حتى تهلك روحه في بَسَلَتها وبؤسها وظلامها، لم يعد لمنزل العاهات قدرةٌ على استضافته، أو تحمل وجوده السَّمج فيه، عليه أن يذهب وتبقى ذاكرته، أو يبقى بعد أن يزيل كلَّ أثرٍ لظلام نفسه، ليس للناس الحق في التلصُّص على خواطره الشخصية، إنه لم يرسم لوحةً من هذه للآخرين، اعترف لنفسه بنفسه، واجه مخاوفه بمزيدٍ من الانطواء على الذات، استنزف صديدَ جروحه بشقٍّ قاسٍ صنعه بأظافره لا بسكِّينه، جرح وصفَّى وتخلص من مخزون الدماء والعطن والصديد، والخوف المتأصل في نفسه المرهَفة المريضة، لا حق للدُّخلاء في أن يستكشفوا ما يريد أن يستره من عوراته وعيوبه، له الحق في أن يحتفظ بذاكرته لنفسه، وكل ما تحتفظ به هو ميراثه وثروته وحده، لقد قدم للعالم الكثير، رسم وسجَّل وأبدع تاركًا إياه يعوم في هلوسته، يتقبل «نابليون» العظيم إمبراطورًا ويسجد له، ثم يُقصيه وينفيه، ويمزِّق كلَّ ما عمله بسلاحه وبخطورة عقليته الجبارة، تخلص من سرطان آل «بوربون»، ثم أعادهم، في مماحكةٍ أسطورية للعبث والنَّزَق والطيش التاريخي، ووضعهم فوق العرش ليلدوا عليه المزيد من الورثة ذوي العاهاتِ العقلية والخلقية، نفى نفسه عن الرب، ثم جاء رجلٌ مجنونٌ ليعلن نبوَّةً على رأس ربع قرن، محمَّلٍ بالأحداث والهزائم والإخفاقات، صنع من «فرانثيسكو» رسامًا يحسده الآخرون، ثم حَّوله إلى رجلٍ ملتاثٍ يتوارى من الناس، ويتخذه العابثون مثالًا لسوء المصير واختلال العقل، عالمٌ عابثٌ أخرق، طفلٌ كبيرٌ يجتهد في بناء قلاعه الضخمة من الرمال، ثم يُجهز عليها بضربةٍ واحدة من يده، وهو صاخبٌ مرحٌ يضحك، مخفِيًا وهمًا سامًّا يتمشَّى في عروقه منذ النشأة الأولي، كونٌ مولعٌ بتحطيم كل شيء وبدؤه من جديد، غير أن الإنسان ليس داخلًا في مساومات هذه اللعبة، فلا يمكن للرجل أبدًا أن يبدأ من جديد، من نقطة الصفر، إنه يستطيع أن يعيد بناءَ ما تهدَّم من نفسه، غير أن روحه تظل مكدَّسةً بالأنقاض، مطمورةً تحت الركام والتراب، والبقايا تنغرز كشظايا الزجاج في كل خليَّةٍ من نفسه السقيمة الممزَّقة. كان كل شيءٍ ينتهي، وينفد الوقت المخصَّص له، وهذا المنزل مضتْ عليه نفس تلك السنة، أضحى عبئًا على نفسه وعلى من يسكنه، لكن ليس بوسعه التخلي عن مذكراته القاتمة، المسجَّلة رسومًا مظلمةً وملغزةً ومروعةً فوق الجدران، لغريبٍ يتجهَّمها، أو عدوٍّ متخفٍّ يسخر في خلواته من آلام وعذابات رجلٍ شقي، لا يمكنه أن يُخلي مسئوليته تمامًا عن هذه المجموعة من اللوحات، رغم كراهيته الشديدة لها، فعليه أن يتقبَّل دور الأب المسئول، حتى اللحظة الأخيرة، عن ذريته، لذلك سيهرب من هذا البيت، لا بد أن يفعل، بدون أن يترك مصيره متأرجحًا مهدَّدًا

بحيازةٍ غير مأمونة، أو نزيلٍ غريبٍ لا يعرف للفن قيمةً أو ثمنًا، مالَك لم يجرِّب مخاض الخَلق الفني، ولا لذةَ النشوة التي تعقُب التحرر من ضغط الرؤى المحتشدة داخل الجمجمة، بهيمٌ غليظ له معدةٌ وأمعاءٌ وأطرافٌ وحواسٌّ نشطة، لكنه لم يوهب مخيلةً، ولا نفسًا مشحونةً بالعواطف والانفعالات، يستحيل أن يُقدم على تضحيةٍ طقوسية مرعبة بالتَّيس الذي كان سحرةُ إبليس يسجدون له على أنه سيدهم. حسنًا إنها خدعةٌ تشملهم هم وشيطانهم في ضربةٍ واحدة، لكن التيس المعبود يظل تيسًا معبودًا، ولا يمكن أبدًا رفعه فوق أسياخ الشيِّ، دون أن يحتجَّ الشرير غاضبًا وشاعرًا بالإهانة!

لن يقبل «اسموديوس» أي إهانةٍ لتَيسه النجس المشوَّه المُسَوَّم، بل عليه هو أن يتحمل مسئولياته حتى اللحظة الأخيرة، وبعد مداولةٍ قصيرة، لم يناقَش فيها رأيٌ ورأيٌ آخر، بل استوى فيها العقلان منحازَيْن إلى جانبٍ واحد من التفكير، قرر السيد الذي ينوي الهرب، أن يهب منزله للباقي من سلالته، «ماريانو» الصغير العزيز، حامل آلامِ «جويا» ودمائه وأوهامه، ومجده وحياته الشقية، بالإرث الدموي لا بالإطاقة والتجربة، سوف يتملك «ماريانو» بيت الرجل الأصم، ناعمًا بحواسِّه الخمس، وبُعده المحمود عن كل هذا المرض المقيم، والتخبُّط المؤلم بين المجد والانهيار والخراب النفسي النهائي، وليكن ميراث جدِّه له دافعًا للتذكر، فربما لا يتذكر أحدٌ اسمَ «فرانثيسكو ديل جويا» إلا بشيئين يكرههما غاية الكره:

بكونه جدَّ «ماريانو جويا» العظيم ورأسَ عائلته، وبأنه الرجل الذي فضح أسرار نفسه علنًا، وتركها مُذاعةً تصرخ بلا لسان فوق جدران منزلٍ لم يشهد أبدًا جنونًا وهلوساتٍ كتلك التي وضعها داخلَه سيدُه الأخير، ثم هروبه هلعًا من نفسه، قبل أن يدرك أنه إنما يخاف الموت أكثر مما كان يتخيل، اعترافٌ أخير لن يعلنه أبدًا، فليس ثمة فائدةٌ من أن تقول أنك تخاف الموت، لأن الموت لا ينصت ولا يفهم، ولا يشفق ولا يبدل رأيه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن وبعد سنواتٍ من خداع الذات، وخيار التدليل الذاتي للنفس، وتجنُّب كل مرآةٍ غير مشوهة تَعرِض الحقيقة ولا تزيِّفها أو تزوِّقها، حان الوقت لمواجهة النفس بالحقيقة، لقول الحق مباشرةً في العين، التي طالما تجنَّبتَ النظر فيها، عينك أنت، ليس للوهم إمكانيةٌ لأن يتجسد في شكل حقيقةٍ ملموسة، لها جسدٌ وأبعادٌ ثلاثة ووجه ذو ملامح، حقيقةٌ لها مجالٌ يمكن تحسُّسه، والحكم على وجوده من عدمه، كل هذه الأمنيات إنما هي أوهامٌ وأكاذيبُ كاملة، حلوة يمكن العيش فيها سنواتٍ دون مشاكل، بل يمكن حتى مشاطرتها مع آخرين، وإقناعهم بالتشارك فيها، وتقبُّل نصيبهم الخاص من لعنتك غير المحدودة، التي لم تستطع حملها وحدك، الثقل الذي يجثم على روحك، جبل «حوريب»

يدخن بالنار، لكن الربَّ لم ينزل عليه، بل هبط، بربوات ملائكته، فوق رأسك أنت، من المستحيل أن تحمل صخرةً كتلك وحدك، دون أن تسقط تحت ثقلها، تنوء بحملها، إذن فاقتسمها مع آخرين، لكن مَن يقبل مشاطرة العذاب، ونيل نصيبٍ وافرٍ من مصائب الآخرين؟!

ليس للرجل العادي من مفازة، إنه مُحاصَرٌ بين واقع قاسٍ وخيال جاف، أشد قسوةً ووحدةً من وحدته المروِّعة في الشوارع، التي لم يعدْ له بيتٌ ولا بابٌ ولا وجهُ صديقٍ مرحَّبٌ به فيها كلها، يمكن للفنان أن يلوذ بعالمه الداخلي الغني، يمكنه أن يرمي بنفسه من جبالٍ لا يمتلكها أحدٌ سواه، ويسبَح في محيطاتٍ لم يذق ماءها إنسانٌ غيره، يستطيع أن يحادث رجالًا لا وجود لهم، بعد أن يرسم ملامحهم بدقة، يمنحهم حياةً لا حق لهم فيها، يخلق وجوهًا وملامح دافئة، يصنع أطرافًا جسيمةً محسوسة، ويهب لرجاله الأوفياء الذين لم يدبُّوا على سطح الأرض يومًا، أجسادًا تنبض حياةً، وفوراتِ شبابٍ وأحاسيسَ خلابةً متداخلةً وحقيقيةً للغاية، وحتى الدم يمنحه عروقًا وشرايينَ مصنوعةً ببراعة ليسير عبْرها، وإذا جاء يومٌ وفتَح أحدُهم بطن أحد شخوصك الأعزاء، بعد أن ينتزعهم من القماش أو ينزلهم من فوق الجدار، لوجد أحشاءً وأمعاءً وبقايا طعام في بطونهم الضامرة، المصنوعة بريشةٍ تضرب اللون فتحوله إلى حقيقةٍ ثابتة، مشاطرةٍ الربَّ في قدراته المذهلة على الخَلق، سيجدون في بطون سحَرتك ومشعوذيك ورهبانك أحشاءً، وتعاويذَ مسمومة ابتلعوها في غفلةٍ منك، وفي بطن كلبك سيجدون حيواناتٍ صغيرةً تُهضم على مهل، أما في بطن «مانويلا بايو» فسوف يجدون رحمًا حيًّا!

رحمٌ حقيقي، رحمٌ مُثمر، دفع برجالٍ قبلك إلى هذه الحياة، وربما تكون أنت نتاجٌ لهذا الرحم السحري العظيم، مجالٌ يحيط بالعالم بأسره، لا بد أن يكون في جسد «مانويلا» روح، وأن يكون في روحها بذرةٌ حياة، وفي بطنها بذرةٌ ولَّادة، من الصعب أن تتخلى عن كل هذا، لكن لكل مرحلةٍ نهايةٌ لا بد أن تصل إليها، خطٌّ تماسٍ ونقطةُ نهاية، حجرُ عثرة لا يمنعك من التقدم، بل يكبُّك على وجهك ويرغمك على التراجع، عُد من حيث أتيت، ارجع وإلا هلكت نفسك، ما أحراه «توركيمادا» الخاطئ أن يكون هنا في تلك اللحظة! فليس في العالم مفتشٌ أخلص في مطاردة كل شخص نابهٍ، أو ذي فكرٍ أو متمردٍ بطبيعته، ضد الخضوع للسوط الكهنوتي، مثل الأب فائق التجلِّيات، إذهالُ النبوءات ليس في تحقيقها، بل في إمكانيتها التماشي مع أي صورةٍ ذهنية نختلقها، توجد الحقيقةُ ثم يبحث الناس عن راءٍ تنبَّأ بها، لكأن عشرةَ آلاف راءٍ تخرَّصوا وتنبأوا بِمحنتك يا «فرانثيسكو»، وربما كانوا أكثر من عشرة آلاف، ربما كانوا مليونًا أو مليونين، في القدس القديمة لم يكن هناك علماءُ حساب، لكن كان هناك هياكلُ وخيامُ عهد، ووحوشٌ وأساطيرُ وعذاباتٌ لا نهاية لها، وأكداسٌ من

الذهب ورجالٌ حكماء، وأنبياءُ ومُخلَصون عُلَقوا على صلبان، كل هؤلاء ينظرونك الآن، ويتطلعون إليك مباشرةً صارخين:

- «ماذا دهاك يا «جويا»؟!»

ماذا دهاك يا رجل حتى تضع قدمًا فوق سلم بيتٍ اعتزلتَ فيه العالم؟ بينما تضيق الحلقة حول عنقك المأسور في الخارج، وأخرى تحركها ببطء صوب باب الخروج، مهْرَبك المشتهَى. إن «يسوع» صرخ طلبًا للإنقاذ وهو يسلم روحه، فحتى الآلهة لا تحب الموت ولا تشتهيه، إن الكنيسة تنوح ساعةَ موت الرب، لكنها تبتهج بقيامته، لا أحدَ يبتهج بالموت، حتى وإن حمل أعظم الخلاصات، البهجةُ للحياة فقط، للحياة وحدها، والحياة تنتظرك هناك، بخيرها وشرها، لا يفصلك عنها سوى باب، تفتحه وتهرب، لن يطاردك الجحيم، ويلهث خلفك ليعيدك، فما من قوى تطاردك طوال عمرك سوى روحك القلقة المُضناة. في الداخل ينتظرك رجالك ونساؤك الذين صنعتهم، يتهمونك بكل نقيصة، يطالبون بمحاكمتك، لمَ قذفتَ بهم إلى هذا الوجود القاسي المظلم؟!

إنهم دفتر اعترافاتك الصغير، صلواتك الحارة التي لم تنطق بها شفتاك قط، إعلان جدارتك، وذبيحتك التي تقدمها أمام إلهك، أمام آلهتك العديدة، ذبيحتُك غير المقبولة، التي حزَّت السكينُ رقبتها فلم ينزف منها أي دم، منك أنت تنزف الدماء الحارة والحياة والغضب والخوف، والتمرد والتردد الموجع، يلازمك كَدُّك وسعيُك الخائب، وتجربةُ هروبك غير المجدية، على الأقل بالنسبة لإسبانيا التي تئن من حولك، بمَ انتفعت إسبانيا بهروبك منها وإليها وفيها؟!

لا شيء غير كثير من الذهان والهلوسة، وتلطيخ الجدران باعترافاتك وأسرارك التي تولَّيت فضْحها بنفسك، طوبى لديوان تفتيشٍ مجيد يمسكُك من رقبتك الآن، ويقودك إلى محاكمة لا تعرف الرحمة ولا التأجيل، إنك لأحمق، وكافة دواخل نفسك جعلتَ منها مسرحيةً هزليةً يستعرضها الناسُ الدخلاء الغرباء الذين لم يعرفوا شيئًا عنك، وربما لم يعرفوك أنت نفسك، وأشداقهم ملؤها الضحكات الساخرة القاتلة للروح، يأسٌ مطبق، لكن لا بد لك من منجاةٍ ومهرب من هنا، أتَّخذت قرارك إذًا؟!

لأول مرةٍ منذ سنوات تجد في نفسك المقدرة على اتخاذ قرار، ربما بعد أن صفَّيت الصديد الذي كان يملأ نفسك المتقيِّحة، بقيتْ جروحك مفتوحة، لكنها أصبحت نظيفةً على الأقل، يمكنك أن تلعقها مثلما تلعق الهرةُ الصغيرة جروحها، دون أن تخشى التسمم أو الإصابة المُمْرضة، لديك فسحةٌ من الوقت لتندب آلامك بعيدًا عن العيون، وأولُ عيون تلك التي لا بد لك من الاختباء منها، هي أعين الأشخاص الذين استحضرتَهم من عدم، وحبستَهم في أسرٍ أبدي على جدران بيتك المعتم الكريه غير الودود، تلك الفسحة البهيجة

التي صبغتَها بقتامةٍ تماثل قتامةَ روحك المظلمة، لا مناص من الهروب، أو الاستسلام للموت بين تلك الجدران الرطبة المشوَّهة بنحت أظافرك، وضربات ألوانك المرعبة.

لن يعاونك أحدٌ، فعليك أن تكون عونًا لنفسك لمرة، اخدمْ نفسك كإنجليزيٍّ بارد الطباع، ثم توجَّع كإسبانيٍّ حارِّ الدماء، نبتَ لحمه من شعر وخصب التربة وطراوة الطبيعة، ولدانة أجساد الأندلسيَّات الرخصة الراقصة، تأوُّدٌ بين الحافَّتين، وتأرجُحٌ بين ماضٍ مظلم، ومستقبلٍ لا تعرف عنه شيئًا، لكنك تستطيع أن تستشرفه في المقدمات المأساوية المحيطة بك، عرش بوربون عليهم اللعنة قد عاد، وطنك قد احتُلَّ، كابوسك في الثالث من مايو قد تحقق، مأساتك تغلَّبت على إرادتك، وتجسَّدت هلعًا يُشيب الشعيرات الفاحمة فوق حوائط معتزلك، بيتك الذي تخبئه داخل روحك قد تقوّض وتهاوى.. هل هذا يكفي؟!

لا، خذ عندك حتى قدوم الصباح، عدّ على أصابعك حتى تنفد، ثم لتجد لك عددًا لا نهاية له، تعرف كيف تعبر عنه، ويعبر عنك، هل هذا يكفي؟!

نعم، يكفي تمامًا وزيادة.. حان وقت الهروب الآن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بانزعاجٍ ورغبةٍ حارة في الإفلات راح يحرِّر أغراضه القليلة المتناثرة، يختطفها من داخل الأدراج، ومن بين الأرفف المحيطة، وينتزعها عنوةً من خزائن المطبخ وحافظات الريش وعلب الألوان، الألوان المبهجة التي لم تُستعمل هنا قط، زينةُ العروس التي اشترت ثوبَ الزفاف ومعدَّاته، ثم جاء يومها الكبير ليتحول إلى مأتم، تسير فيه مطأطأةَ الرأس خلف تابوتِ زوجها، نهايةٌ مثالية للقصص الأكثر سخافةً ونمطيَّة، كل هذه اللحظات المكرَّرة والمعادة يجب أن تتوقف، سيرُ الحياة بأكمله يجب أن ينعكس، وإلا فليذهب العالمُ كله حيث يجب أن يذهب، إلى الجحيم أو الفردوس أو نهاية الأرض لا يهم، ظلامٌ كامل يغشى روحك، وتهديدٌ خطير يتربص بك في هذا المنزل، ثمة روحُ شرٍّ تسللت إلى بيتك، وتكمن متربصةً بك في كل زاويةٍ وكل ركن من منزلك، معتزَلُك الآمن أضحى الآن مصدرًا عظيمًا للتهديد، وبرغم رعبك من خيالك المتوحش، الذي ما فتأ يتضخم وينتعش أمامك، فإن عليك عملًا يجب أن تؤديه، بُعَيد نهاية نهارك لم يعد هناك مزيدٌ من الوقت للهروب بكل شيء، عليك أن تترك كل ما لا تقدر على حمله، كل ما لا تجرؤ على الدخول إليه، واستخراجه من بين أنياب الشياطين التي تتحفَّظ عليه، لتنجو بنفسك وحسْب، وبسرِّك الأخير وهذا يكفي، في غرفة الطابق العلوي، الغرفة اليسرى، حيث لم يكن يطرقها إلا ليستزيد من انتشاء روحه بما خلقه وأوجده من العدم، شركتك مع الرب وتساويك معه أحيانًا في قدراته على الإيجاد

والخلق والإبداع، وأحيانًا في أحكامه القاسية النهائية ضد الأرواح النجسة المتمردة، هناك كان ينتظرك سرُّك الأخير.

مضى وهو يقدِّم قدمًا ويؤخر الأخرى، تردُّدٌ عظيم وخوفٌ رهيب من مجرد الإقدام على خطوة كهذه، كان في قميص يوم الأحد، الذي لم يبدِّله منذ خمسة أيام، إذ تحضَّر للذهاب وحيدًا إلى الكنيسة، فلم يذهب ولم يبق وحيدًا كما تمنى، وفي منظرٍ زريٍّ مشعث، تاركًا حواسَّه وأطرافه تتمادى في سيطرتها المطلقة على روحه، إلا أنه وفي تلك الغرفة، التي تخلى عن الحياة التي خلقها فيها طويلًا، كإلهٍ قاسٍ يتنصَّل من مسئوليته تجاه مخلوقاته الضعيفة الوحيدة المهجورة، هناك كانت أربع جدران، غير أن اثنين منها فقط كانا حيَّين نابضَين، الآخران تُركا للحياة القليلة التي مُنحت لهما، الموت الرقيق الذي شملهما بنقوش تمثل الحياة الريفية، وسعادة الفتيات القرويات بخدودهن المتوردة ووجناتهنَّ الناضرة، الفتيات اللائي لا يعرفن الفلسفة ولا تعرفهن، والرجال الذي لم يُرمَ بهم في بَوتقة العلوم والفنون والجدال حول النظريات، وعبوس المعرفة التي لا ترتوي ولا تشبع أبدًا، وبرغم بهجتها فإنها حياة عدميَّةٌ سخيفةٌ وقليلة القيمة، لا يقدِّر قيمة المعرفة إلا مَن ناء بحمل ثقلها، وتحمَّل إجحاف دفْع الثمن لقاءها دون أن ينال ثمرةَ التمتع بها، في تلك الغرفة كان هناك طريقان في الحياة يتصارعان ويتلاحيان، بصمتٍ ودون صراخٍ أو ضجة، كدودةٍ عملاقة تنهش جثةً، فهل يسمع مارٌّ بجوار القبر جزَّ المخالب أو حزَّ الأنياب؟!

لا، وحشية الموت هي صمتُه، ولذلك يفضل الرجالُ أن يموتوا مضرَّجين بدمائهم في ميادين المعارك، على رعب الموت بصمت في قعر البيوت ورطوبتها وصمتها المؤلم الدائم، في هذه الحجرة انتهت معركةٌ بلا حسٍّ بنصرٍ صغير مدوٍّ، نصر ليس مرجعه قوة خصم، قدر ما سببه هو قرارٌ مفاجئ للخصم الثاني بالانسحاب؛ لأن الأمر لم يعد يستحق، ولا غنيمة تنتظر بعد كل تلك المعمعة الهائلة جسيمة الخسائر، معركتك خاسرةٌ وأنت تعرف ذلك، حتى من قبل أن تخوضها، إذًا فليس من الأمانة أن تترك أسراك في السجن وأنت لا تملك شيئًا تبادلهم به، عليك أن تحررهم دون دفع فديةٍ لا تملكها، أو تتركهم هم يحرِّرون أنفسهم بطرقهم الخاصة، لكن مادمتَ تملك وسيلةً لإنهاء أزمتهم فعليك أن تفعل، حتى ولو كان المقابل هو أن تُتَّهم، بقية حياتك وطوال موتك، بالجنون والقسوة والمرض والخبال، ومَن لا يتهمك؟ ومن يهمك أمره؟ لا يهمُّك الآن إلا أن تذهب، ولن تستطيع أن تذهب قبل أن تتحرر تمامًا، ولن تتحرر قبل أن تمحو منظرين وحشيَّين رسمتَهما في غفلةٍ من نفسك الساهرة الميتة رعبًا في جلدها، منظرين مختلفين عن الأربعة عشر صلاةً للموت، للألم، للرعب، التي تلطِّخ الحوائط بأسفل وأعلى، كان كلا المنظرين هنا، أحدهما خلفك ينتظر دوره، أما الأول فكان أمام وجهك مباشرةً، تتأمله حانقًا

على القدَر الذي أرغمك على محوهما، وشطّب حقيقة وجودهما إلى الأبد، الأول كان الأخير والأهم والأكثر تكلفةً وخسارةً في إنهاء وجوده، في ذلك الرسم لم تكن ثمة ألوانٌ قاتمةٌ أو ظلامٌ مسيطر، فقط سلمٌ طويل، لا عدد لدرجاته، ترقد في نهايته امرأةٌ بسيطة، مرضعةٌ سمينة، بمنديل رأسها المشجَّر المنزلق عن ناصية تعرض شَعرًا لامعًا مكبوسًا تحت العصبة المُحكمة، برغم لون الشيب الذي خالطه وهيمن عليه، متوردةٌ ومكتنزةُ الخدَّين، فاتنةٌ رغم نظرة الموت واتساع عينيها المحدِّقتين في لا شيء، كانت ميتةً، متدحرجةً في لعبةٍ قدرية غير منصفةٍ وغيرِ مبرَّرة، تردَّت من فوق سلمٍ طالما بُريت يداها في مسحه وتنظيفه، وتدحرجت لتهوي في بئر سحيق، وتكسر رقبتها، كانت خادمةَ بيتٍ ممتازة، ومربيةً لا يجود الزمان بمثلها، أمٌّ ثانية لأولاد البيت، أمٌّ حقيقية أكثر ممَّن ولدتهم من أحشائها، وكان اسمها «مانويلا»، «مانويلا بوسكابيتاس»، هذه هي الحقيقة، لقد استعملتَها في غير أمانة، نسبتَها إلى غير أبيها، وألقيتَ بحملك الزائد عليها، لكن يُحمد لك أنك استخلصتَها- ولو لأيام معدودة- من ضمة الموت التي أحاطت بها، لتتركك وحيدًا مجربًا مرارة اليتم لأول مرة، تلك المرارة التي كُتب عليك، دونًا عن بقية البشر، أن تتذوقها أكثر بكثير من مجرد مرتين، تلك المربيةُ الطيبة، التي كانت لك، ثم تخلَّت عنك وعن بقاء نفسها، رغمًا عنها، عندما كنتَ في العاشرة من عمرك!

شبحُها الأنيس كان خيرَ مؤنسٍ لك في وحشتك، أكنتَ تتحمل عزلةً موحشةً ووحدةً مرعبةً كتلك دون روح «مانويلا» الراعية الصالحة؟!

لا، لكان الأمر ليصبح أكثرَ رعبًا من الموت، انتهيتَ إذًا، حكمتَ عليها بالهلاك والنسيان مرةً ثانية، ترفُّقًا منك وحمايةً لها من أن يستغلَّها أحمقُ ثانٍ، أو أن يتطفل رعديدٌ جبان بلا خُلق على لحظة موتها المأساوية، ويتخذ من لحظة وجعك التمهيدية مجالًا يناقشه في منتديات الأثرياء، التي لا تعرف الرحمة، ولا الإشفاق على من ذاقوا البؤس بلا موعدٍ ولا سببٍ وجيه، انتهيتَ وانتهت معك نقطةٌ مضيئةٌ من حياتك، غطيتَ الجدار كله بلونٍ زاهٍ، دعهم يفرحون ببهجة ألوانهم الصارخة، فالظلمة لا تليق إلا برجلٍ فذٍّ يقدُرها حقَّ قدْرِها، دعها تجرب الموتَ لمرةٍ ثانية وأخيرة، فسوف تلحق بها عما قريب، وتتوسل الصفحَ والمغفرة، وهي ستكون رؤومًا كدأبها دائمًا، فتمنحك عفوًا شاملًا خالصًا، دون أن تنتظر منك قربانًا من دمٍ أو لحم تيوسٍ محترق. عطفُها أعظم من شفقة إلهٍ على شعبه المشرَّد في البرِّيَّة، فالآلهةُ لم تعرف البؤس، لذلك فشفقتها قاسيةٌ وباردةٌ ومتعالية، ولا تتفهَّم آلام الإنسان أبدًا، أما المنظر الثاني فقد كان أهونَ عليك في التخلص منه، هذه المرة ملأتَ وجوده ومحوتَه بطبقةٍ غليظة من الزيت واللون الصارخ، الأحمر بفجوره وتهتُّكه، ومقاومته لكل امتزاجِ أو ذوبانٍ في غيره، منظرُ مندوب البلاط الملكي لا يستحق سوى هذا،

دعهمً يتساءلونَ عن الجنون الذي دهاك لتطلو جدارين في غرفة واحدة بلونين مختلفين متبايِنَين أشدَّ التباين!

لن يزدروك أكثرَ مما عقدوا العزم على فعله، فقد بصم مجتمعٌ بأكمله على قانون جنونك، ومُروقك من تبعيَّة الكنيسة ومن طُهر التناول المقدَّس، اعتبروك وصمةً، وبالغوا في تحقيرك، فلتمنحهم شيئًا يحقِّرونك لأجله على الأقل، لتكن جديرًا باللعنة حتى لا تُلعن ولا تُلام دون مبررٍ كافٍ، إنِ اتَّهموك بالجنون فقدِّم لهم حزمةَ دلائلَ دامغةً على أنك أكثر جنونًا مما يتخيلون.

لقد انتهيتَ الآن، تهانئنا، هللويا، ولتهربْ بجلدك من هنا، فوريثك آتٍ لساعته لتسلُّم ميراثه، بينما المنفَى والمهرب ينتظرك أنت لزمن غير محدود!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(00)

مع كاتيا ذلك أفضل جدًّا!

بينما كانت العربةُ تهدر، محملةً بأكداس الأغراض، التي حُزمت سريعًا وبلا إتقان، مخلِّفةً وراءها بيتًا قفرًا خربًا، يريم عليه صمتٌ ومواتٌ مؤقَّتين، منحدرةً نحو المدينة الشاسعة، التي راحت رقعتها تنبسط شيئًا فشيئًا، وتتَّضح معالم مبانيها، وكنائسها، وقصورها، ومجالس الظلم والتلفيق العتيدة فيها؛ كانت الأفكار تتلاعب برأس الهارب، الذي نفى نفسه بنفسه للمرة الثانية، تطوَّح بذهنه يمينًا ويسارًا، كمريض نهض لتوِّه من غيبوبةٍ طويلة وهو يحسُّ خمولًا تامًّا. ثقلٌ في الرأس، ذهولٌ وضباب يحجب الرؤية، كان الكون كله مصطبغًا بلونٍ شاحب، والرؤى تظهر وتختفي خلال طبقةٍ معتمة من السحب، التي تتوهَّج فيها- من حين لآخر- بروقٌ لامعة بألوانٍ صاخبة، تبهر العينين وتؤذي النظر، تجبرك على غض البصر تجنُّبًا للأذى والعمى، تحالفت قوى الطبيعة ضده أيضًا، فانهمر مطرٌ غزير أوحل الطرقاتِ وجعل عربته- بما تحمله من متاع وأحمال ثقيلة- تغرس في الطين الرقيق الطري، سبَّ حُوذيَّه، ولعن وجدَّف ووجَّه شتائمه كالسيل تجاه الأرض والسماء، وبرغم أن السيد «جويا» لم يسمعه، إذ آب أخيرًا إلى اليقين الصارم، معترفًا بحقيقة كونه أصمَّ تمامًا، وليس مثلما كان يحلو له أن يوهم نفسه، إلا أنه فهم من لفتات الرجل وحركات رأسه، وقبضة يده التي يوجهها مضمومةً كتهديدٍ خطيرٍ قابلٍ لتنفيذه في أي لحظة، نحو السماء، أنه يعالج سخطه على ساعة النحس هذه بتفريغ شحنة الغضب واللعن المكبوتة في صدره، خاف المنفيُّ الهارب أن يطيِّب خاطره بكلمة، فتشمله عبارةٌ مليئة بالسباب بدوره، فلاذ بالصمت، ومضى منزويًا في ركنه يتابع بلا اهتمام أكداسَ أغراضه الملفوفة بالقماش وهي تتأرجح وتتقافز مع تحركات العربة غير المنضبطة، استجابةً للخطورة الطارئة التي أصابت الطريق الآمن بقية أيام السنة. كان منزله قد أُسكن الآن، وأصبح مأهولًا بحياةٍ حقيقية، لم يترك مذكرةً ولا وصيةً لـ»ماريانو» الصغير بشأن لوحاته الجدارية، اعترافاته ومذكراته الخطيرة، التي تركها منبثَّةً فوق الجدران، وما من وسيلةٍ لتحريرها أو نشرها على الملأ، ما لم ينظم فرطه المارق معرِضًا للوحاتٍ بداخل جدران منزل ذوي العاهات، وهذا ما لن يحدث أبدًا، ليس لأن الولد يستنكف عن فعلٍ كذلك، بل لأن أحدًا لن يهتم برؤية سجلَّاتٍ للجنون، وطقوسٍ شائنة للاعتراف بالخبال والقتامة، التي تغشى نفسًا متهمة في عقيدتها، كما في عقلها واتزانها. لم يشعر الفنان الهارب، الذي استقر أخيرًا على وجهته النهائية المناسبة، بالخوف أو التهديد، فقد وصل أخيرًا إلى برِّ السلام، مدركًا أن الوسيلة المثلى للتعامل مع حقائق هذه الحياة هي تركُ كل شيء يذهب إلى الجحيم!

فقط كان أمرٌ واحدٌ يشغله ويعطل قدرته الطارئة المذهلة على الاستهانة بكل شيء، مرَّ أو سيمرُّ في حياته، إن كانت ثمة فسحةٌ جديرةٌ بالحساب باقيةٌ من عمره، وهو تساؤله القلق عن مبررٍ ما فعله، قبيل رحيله الفجائي الهلوع، كان يسأل الرجل الجالس قبالته، الذي اختار أن يكون رفيقًا لسفره في رحلته الفردية الموحشة، عن سبب إصراره على الاستفسار عن هذه البطانة الجنونية التي نبتت في رأسه، فنفذها دون تفكيرٍ أو فحصٍ كافٍ للفكرة نفسها، لكن الآخر ظل معتصمًا بحقيقةٍ يراها، ولا يراها غيره أو يعتقد بصحتها، وهي حقه في أن يسأل المنفيَّ اختيارًا، عن كل ما يريد، دون أن يكون للثاني نفس الحق في توجيه أي أسئلة بدوره، أو حتى الامتناع عن تقديم أجوبةٍ شافيةٍ ومباشرة، كان يحاصره بسؤالٍ واحد في تلك اللحظة، ولا يَني عن الإصرار على أن يعطيه الآخر الجواب الذي يريد:

- «لماذا رسمتَ «مانويلا بايو» وسط هذه الوحوش الحبيسة المكبلة على الجدران؟!»

فأجاب «فرانثيسكو» خجولًا من ضعفه الذي أُكره، بواسطة قوًى غيرِ رحيمةٍ على الإفصاح عنه:

- «وهل كنتُ أبقى وحيدًا بلا أنيس في هذا المعتزل الموحش؟!»

- «ولماذا محوتَها قبل أن تفارقه؟!»

- «لكي لا يأتنس بها غيري!»

فقطَّب الآخر جبينه ولم يبدُ راضيًا، فبادره «فرانثيسكو» قبل أن يعرب عن المزيد من تساؤلاته الحائرة، قائلًا دون أن تتحرك شفتاه، وهو يراقبه بعينٍ متفحصةٍ ثابتةٍ كعين الصقر الجارح:

- «وإن لم تُرضِك هذه فانتظرْ ريثما أفكر في إجابةٍ أفضل، تبقى ثابتةً ولا تتبدد سريعًا!»

ثم أضاف، وهو يميل برأسه إلى الأمام، مراقبًا بقلقٍ ملامح رفيقه التي بدأت تذوب وتختلط وتتلاشى، وتصبح عسيرةً على التمييز:

- «ما لم تكن أنت وهمًا بدورك!»

لم يسمع الطريق المقفر، في تلك الساعة، مناجاته الخافتة، لكن السبيلَ المطروق حيَّاه بازدراء، وهو يتابع بعينٍ ساخرة محاولةَ «فرانثيسكو» العجوز المرتجَلة والعبثية للفرار، قائلًا بفرح عظيم:

- «وداعًا أيها الخليع!»

حين حانت لحظةُ الحقيقةِ النهائية تركوه كلّهم وانصرفوا، تحت ضغط القبَّة الهائلة التي صنعها بنفسه ولنفسه، لكنه لم يبقَ مكتوم الأنفاس طويلًا، إذ سرعان ما أزيلت الأكوامُ الهائلة من الأحجار، التي تضغط على صدره، وارتفع غطاء النعش ووجد نفسه للمرة الثانية يتنفس بحريةٍ وراحة. أطل عليه وجهٌ محبَّب، منمنمٌ ودقيق التفاصيل من أعلى، وجهٌ جهد في رسمه بكل الطرق والزوايا والأوضاع، لكنَّ عملَ الطبيعة كان أكثر إتقانًا من عمله هذه المرة، فجاء تسجيله غيرَ أمينٍ، وبقدرٍ متواضعٍ من الدقة. دفقة إغراءٍ نفثتها حية طيبة أنعشت روحه الخامدة، ونشطت مجاري الدم في عروقه وشرايينه، قيل له أخيرًا ما تاق لسماعه متربصًا ثمانين عامًا، دون رحمةٍ أو شفقة، كان هذا عندما انحنت «كاتيا ماريا» الميتة فوق جسد عشيقها الميت بدوره، هامسةً بمزيجٍ من السحر والخمر والغنج:

- «سأمارس كل نزاوتي معك!»

ثم انكبَّت عليه وضمَّته بشدة، وحتى الآن يبقى القبر مشغولًا بجسدين متعانقين، ميِّتَين منذ الأبد، وإلى الأبد، متوازنَين ومتمازجَين في سيمترية رائعة، راقدَين في حلَّةٍ موشَّاة، وبلا سترٍ يحجب الحقيقة، أو يشهر بتشنيعاتٍ زائفة، حول نفسٍ سامية، لم يطَّلع أحدٌ أبدًا على خبيئتها الثمينة!

الحياة قصيرة.. أما الموت فطويل جدًّا!

«نيكوس كازانتزاكيس»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خارج النص

في يوم 16 أبريل من عام 1828م مات مشهورًا، مغمورًا بآلامه وأدْوَاءٌه، بين الأعين المتأملة لعشيقته وابنيها، وأسرته المكوَّنة من حفيده وكنَّته. مات منفيًّا بإرادته عن وطنه، وفي مدينة فرنسية تحول بينها وبين تبريحات وطنه العزيز؛ الرجل الذي عرفه العالم باسم «فرانثيسكو خوسيه ديل جويا ولوسينتيس» Francisco José de Goya y Lucientes، عن اثنين وثمانين عامًا، متردِّيًا في أزمةٍ صحية شلَّت نصف جسمه المكدود، ومنعته من إطلاق صوته، احتجاجًا على وحشية هذا العالم، وتدابيره غير الموفَّقة، إذ حبَس المرضُ صوتَه، تاركًا إرثه لابنه «خافيير»، وحفيده العزيز على قلبه «ماريانو»، في بوردو الفرنسية، حيث تصدح الحرية نشيدًا لا يجد صدًى لترديده في إسبانيا، وطنه العزيز الذي فارقه مقسورًا ومتوجعًا، مخاضه الطويل انتهى برفاتٍ مدفونة في أرضٍ أجنبية، حتى حان وقت عودة كومة العظام المتقلقلة إلى الأرض التي نشأتً فيها، بعد سبعين عامًا؛ فأعيد «جويا» مرغمًا، مثلما أُكره على الهروب مرغمًا، إلى وطنه، ليستقر تحت القبة الهائلة لكنيسة «سان أنطونيو دي لا فلوريدا»، ليصبح من الأشخاص القلائل الذين نالوا شرفَ الدفن تحت سماءٍ مِن صُنعِهم هم!

غير أنَّ جسامة بنيان الكنيسة الهائل لم يكن ليمنع روحًا حرةً- كروح «فرانثيسكو»- من الانطلاق بعيدًا، هائمةً في فضاء يخصُّها وحدها، ولا يتطفَّل على أسراره أحد!

وكانت حبيبته الدوقةُ غريبةُ الأطوار «كاتيانا ماريا ديل بيلار» قد سبقته إلى الموت منذ خمسةٍ وعشرين عامًا، في غمرة الأربعين، حيث لم تنفَد حيويتُها، ولا تراخت رغبتها الشبقة في الحياة، والتمتع بالملذَّات المتاحة، تاركةً ذكرى حارةً تملأ بقية أيام الفنان المصاب بالحب والعطف، ورائحة النسيم الرقيق، الذي كان يفوح من شعرها، والتي أُغرم بها أيَّما غرام، وخلَّده- مضمومًا إلى روعة تقاسيمها وغنج فخرها الذاتي بجمال قدِّها وروعة اكتمال خِلقتها الفاتنة- في شخص الماخا العارية.

أما «مانويلا بايو بوسكابيتاس» فلم يكن لها أبدًا، ولا في أي مرحلةٍ من مراحل حياة الفنان أي وجود.

هذه ليست سيرة حياةٍ لـ» فرانثيسكو خوسيه ديل جويا لوسينتيس»، بل هي مذكراتُ رحلةٍ غامضةٍ في خفايا قلب إنسان، إنسان فنان، لم يسمح لأحد أبدًا بالتلصص على دخيلة نفسه بأكثر مما ينبغي، لكن بطريقة ما يمكن فضح أسرار الفنان بالنظر إلِى كتاب أعماله المنشور، بقاياه الخالدة والمُفصِحة

بقوةٍ وبيانٍ ساحر متمثلًا في إرثه الخالد، وغير القابل للفناء، والذي يمكن قراءته بصورٍ مختلفة، وفقًا للزاوية التي تقف فيها أنت!

بقيت اللوحات السوداء حبيسةَ جدران منزل الرجل الأصم Quinta del sordo، ومعرَّضةً للمعاملة غير الأمينة خلال عمليات بيع المنزل المتتالية، لكن لحسن الحظ فإن مالكًا أخيرًا ذواقةً للفن متمثلًا في شخص البارون الفرنسي «ردولف درلانجيه» Rodolphe d'Erlanger، اقتنى المنزل، وقرر عام 1874م، أي بعد حوالي خمسين عامًا من فرار الفنان من منزله، وترْكِه لتراثه رهينة المُلَّاك والمتعاملين بلا رؤية؛ أنه قد آن الأوان للحفاظ على تلك اللوحات الرائعة، فكلف أمين متحف برادو «سلفادور مارتينيز كوبيس» Salvador Martinez Cubells، بنقلها من الجدران إلى اللوحات القماشية، وهو عملٌ هائلٌ ودقيق جدًّا، لكن عوارضه الجانبية كانت وقوع كوارث تدميرية، وإفساد لبعض معالم اللوحات، يقطع مؤرخو الفن بأن كثيرًا من اللوحات السوداء خسرت أجزاءً غيرَ هيِّنةٍ من معالمها الأصلية خلال عملية النقل الشاقة.

اللوحات السوداء محفوظة الآن في متحف ديل برادو الوطني Museo Nacional del Prado/ مدريد.

أما منزل الرجل الأصمِّ نفسه فهُدم عام 1909.

هناك نظريةٌ مثيرة للغاية تفترض أن اللوحات السوداء ربما لا تكون كلها، أو بعضها على الأقل، من أعمال «جويا»، استنادًا إلى وثائقَ قانونية ترجع إلى فترة سكن الفنان في بيت الرجل الأصم، وتصف الحوزة من أنها مكونةٌ من طابقٍ واحد فقط، مما يعني أن لوحات الطابق الثاني على الأقل أضافها شخصٌ ما بعد وفاة «جويا»، ونسبها إليه جلبًا للشهرة، تتهم هذه النظرية «خافيير»، نجل الفنان، بتزوير وتلفيق نسب هذه اللوحات. لكن لهذه النظرية معارضون كُثُر، وأشد إثباتًا لآرائهم من مؤيديها.

تضاربت آراءُ الأطباء والدارسين حول طبيعة المرض الذي أصاب «جويا»، وأدى إلى فقدانه السمع، فقد اعتقد البعض أنه من عوارض مرض الزهري (سيفليس)، أو السكتة الدماغية،كما أن هناك تحليلاتٍ نفسيةً تفترض إصابته بانفصام الشخصية ونوبات التشكُّك. ولكن وحتى الآن لا يوجد تشخيصٌ متفَقٌ عليه لتعليل تدهوُر حالة «جويا» الصحية والعقلية.

*اسم الرواية مأخوذ من لوحة لـ «جويا» ضمن مجموعته الشهيرة نزوات Los Caprichos

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس..

عن الرواية..
(0)
(1)
كعب كاتيا
(2)
رجل يقضم عَقِبه نيًّا!
(3)
يدُ الله ليست على المطرودين!
(4)
منزل البشارة المرعبة!
(5)
عصيدة الشر!
(6)
صلاة دامية من أجل قاتلي عمانوئيل!
(7)
ليوكاديا.. الشمس في عين حمئة!
(8)
مبعوث الشيطان الأرجواني!
(9)
مأساة يرويها كلب!
(10)
اسموديوس: خلاص بدون سفك دم!
(11)
دعوة لحفل الساحرات!
(12)
إفحام الديوان المقدس!
(13)
رجال يفتشون عن اللعنة!
(14)
كما لم يولد مثله.. كما لم يولد مثلها!
(00)
مع كاتيا ذلك أفضل جدًّا!
خارج النص